

ألمام مابا جخو باه

وملحمته الجهادية في المنطقة السينيغامبية

لنشر الإسلام ومحاربة الظلم في القرن التاسع عشر

تأليف بروفسور/ إب دير تيام

تعريب: إمام الحسن سك

سلسلة عظماء إفريقيا[1]

إن لكل عصر سماته ، وإن من سمات هـذا العـصر انتـشار مؤلفات حول تاريخ أفريقيا ، بحيث أنه لم يعد أحد يـستطيع أن ينكـر وقائع هذا التاريخ بسبب المؤلفات الوافرة التي كتبت في تريخها.

وهذه المؤلفات تستجيب لرغبة جمهور عريض يتشرق لمعرفـة تاريخ القارة لمقارنة وقائعها بوقائع بقية القارات ، بيد أن الاسـتفتاءات التي وجهت إلى الجمهور المتوسط الثقافة – من الإعداديين والثـانويين – دلت على أن هذه لكتابات المتوفرة لم تحظ بإقبال كبيـر مـن هـذا الجمهور ! ويرجع السبب في ذلك إلى ن هـذه الكتابـات قـام بهـا أكاديميون قل ما يأخذون بعـين الاعتبـار مـستوى هـؤلاء القـراء المتوسطي الثقافة.

وإلى الآن لم تظهر أية سلسلة مكتوبة باللغـة الفرنـسية تـسعى لتقديم هذا التاريخ بأسلوب مبسط يوافق رغبة هذا الجمهـور ، وهـذه السلسلة تسعى لسد هذه الثغرة.

وقد اختير لها موضوع " عظماء فريقيا" لأن مفهوم التاريخ فـي أدبيات سكان القارة تشمل في الدرجة الأولى حكايـة حيـاة الأبطـال ومؤسسي المماليك والإمبراطوريات كما يقـول المـؤرخ التمبكتـوي السعدي ، وكلنا يعرف أن حكايات أجدادنا في أنديـة سـمرهم كانـت تدور في أغلب الأحين حول حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحيـاة صحابته الكرام وعظماء الإسلام من الأولياء والصالحين ، كما كانـت تدور حول حياة ملوك وأمراء بلادهم من حيث سلوكياتهم ومغـامراتهم ومعاركهم والحالات التي اخترمتهم المنايا وهم عليها.

ولم يكن هنالك أي شيء ألطف ولا أشد بعثا للسرور في أنفـسهم من هذه الحكايات .

ولجعل حكايات تاريخ أفريقيا لطيفة في نفـوس القـراء اختـار مؤلفو هذه السلسلة الأسلوب القصصي الأخاذ ، ولكن لا ينخدعن أحـد بهذا الأسلوب للظن بان الحكايات خيالية ، بل كلها واقعية استقيت مـن

[1] نشر هذا الكتاب باللغة الفرنسية ضمن إصدارات هذه السلسلة أي سلسلة عظماء أفريقيا les grande fipures Africaines (المعرب)

أوثق مراجع تاريخ أفريقيا وإنما تخلى المؤلفون عن اللهجة الأكاديمية طواعية منهم بهدف تفهيم جميع الناس.

والنقبة الأخرى التي تفاداها هؤلاء هي الوقوع في تقديس التاريخ إلى حد جعل السلسلة منبرا لتقديس هؤلاء الأشخاص ، بل إن كثيرين من الرجال والنساء المحكية تواريخهم هنا بعيدون كل البعد أن يكونوا محلا لإعجابنا في جميع نواحي حياتهم فبعضهم كانوا غزاة قساة القلوب ، تسلطوا على شعوبهم بواسطة مذابح رهيبة ،والآخرون كانوا مدفوعين بمشاعر وطنية جياشة حملتهم على شن حروب مقاومة شديدة ضد الاستعمار وكثيرون منهم اخترمتهم المنايا في ظروف وملابسات بائسة .

ولكن يجب أن يعلم بأن جميع الصور التي تلصقها بهم هذه السلسلة صحيحة وواقعية على الرغم من كونها مثيرة في أغلب الأحيان .

لا شك أن الإنسان يتمكن من معرفة مزيد من تاريخ أفريقيا خلال هذه السلسلة ، وذلك بالنفاذ في أعماق هؤلاء الرجال المتحمسين لقضاياهم ، وهؤلاء النسوة ذوات المبادرات العظيمة إلى حد التضحية بحياتهن، لأنهم كانوا يشكلون قادة وقائدات تمكوا من فرض سلطات كانت ذات آثار مثيرة للإعجاب في أغلب الأحين ، وبعضهم تمكنوا من تجسيد إخلاص رائع وأريحية عالية مبنية على البطولة والحب.

والقراء الكرام سيكتشفون – خلال هذه السلسلة – بأن أفريقيا تحتوي على أعظم وأجل من مجرد أرض للاستغلال، وما يلتقون به في هذه السلسلة هو أنه ولدت في هذه القارة إنسانية فتية ونشيطة كانت تحس بوجودها.

هذا الكتاب

في الوقت الذي كان السنغال يتعرض للمحاولات الأولى من الغزو الاستعماري في القرن التاسع عشر ، قام مابا جخو باه العالم الشاب ليجسد في نفسه مؤهلات العباقرة من حيث الذكاء والرسوخ في العلم والتربية الإسلامية ومتانة الخلق وجميع الصفات التي كانت تساعد العظماء ، على تحويل مجرى التاريخ ، فاستعمل هذه المواهب في سبيل خدمة عقيدته وإيقاد شعلة المقاومة في الناس للقضاء على الإمارات المضمحلة التي كانت ترضى بوضع الذل والمهانة والاستغلال المفروض من الاستعمار .

كما نفخ قوى تجديدية عظيمة للإسلام في النفوس التي كانت معجبة بتدينه العميق وولوعه الشديد بمعاني العدالة وخططه الذكية كفارس لا يتعب، وساحة أعماله الجهادية كانت تمتد من ضفاف نهر السنغال إلى ضفاف نهر غامبيا .

ويقوم بروفسور إبا دير تيام من خلال هذا الكتاب بحكاية هذه الملحمة الجهادية العظيمة لأحد عظماء تاريخ السنغال.

وكل ذلك في تفن القصاص وتدقيق المتخصص.

التمهيد :

لم يكن دخول الإسلام في المنطقة السنغامبية قد اكتسب صفة العموم في الفترة الممتدة من 1850 م إلى 1860 م ، بل إن غالبية سكان هذه المنطقة في هذه الفترة كانوا متمسكين بالديانة الوثنية المحلية .

وكان لابتداء دخول الأوربيين في المنطقة نتائج وخيمة زادت الطين بلة! إذ سهل انتشار الخمر وانحلال الأخلاق وتلاشي القيم التقليدية التي كانت تساهم على انسجام العلاقات الاجتماعية بطريقة أو بأخرى.

وفي هذه الفترة بالذات كان النظام الاستعماري يترسخ في السنغال شيئا فشيئا ، بعد أن ابتدأت في أمكن متفرقة مع استيلاء الفرنسيين على جزيرتي غوري واندر(سانت لويس) في بداية القرن السابع عشر ، واستمر هذا التوسع طيلة القرن الثامن عشر ،وطيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان يقوم وجوده أساسا على امتداد حافة النهر لأنه باستثناء بعض الاتصالات مع الإمارات المحلية ، فإن غامبيا وجزيرة كاربان هما وحدهما اللتات عرفتا بداية احتلال حقيقي ..

ولم تبدأ فترة الحروب الاستعمارية في السنغال إلا بعد تعيين فيدريرب حاكما على ما أصبح يسمى بـ" لمستعمرات".

والمراحل الرئيسية لهذه الحروب الاستعمارية هي : 1857 م تاريخ إلحاق والو بالمستعمرات الفرنسية ، و1857 م حيث قام الكابتن الفرنسي / داويسوا بروتي " بالاستيلاء على جزيرة " رأس الأرض في 20 مايو من هذه السنة، وكذلك سنة 1858 م حيث تم إلحاق " ديمار" التي تبعه في السقوط داخل الحوزة الفرنسية كل من "تورو" و" دامكًا" ، كما قام الفرنسيون في نفس هذه السنة بتوقيع معاهدات مع سكان " فلوب" وسكان " بليس " وبايوت" و" جوكوت"و" كارون" مما كان يشكل اختراقا عظيما في الأقاليم الواقعة شمال نهر غامبيا "

بهذا كانت المستعمرة تأخذ بصفة متدرجة صورتها لكي تكون في موعد مع الانتشار في السنوات القادمة .

ولم تكن الإمارات المحلية تبدو وقتها قادرة على إيقاف هذا الامتداد المتطور لمناطق نفوذ الأجانب الغزاة في ممالكهم وإماراتهم.

ويرجع هذا العجز إلى أسباب منها: تجارة الرق، التي كانت قد أحدثت اضطرابا عريضا في ربوع المجتمع مع شيوع شرب الخمور والمنافسات الداخلية والفارق التكنولوجي الكبير بين الأوربيين والأفارقة وغير ذلك من العوامل التي كانت تحرم هذه الإمارات من استعمال مواردها البشرية والمادية والمعنوية للقيام بهذه المهمة.

ومع كل هذا فإن الفرنسيين لم يكونوا قد أحكموا القبض على مناطق نفوذهم كليا إما لأن هذه المناطق كانت بعيدة عن مراكز قواتهم أو تتخللها أراض لم تستلم بعد للفرنسيين.

وهذه الحالة كانت تنطبق على شمال غامبيا، حيث كانت توجد بلاد " كايور" أرض الوطنية المعتزة والإباء ، التي كانت تتخلل بين دكار وسانت لويس كجسر ممدود بين جزيرتين ، وكانت بلاد " كايور " مستقلة ، لكن بسبب منافسة داخل أسرتها الملكية ، كان قد تم تنحية كل من " لانجور " وماكودو" الذين كانا يبدوان أكثر اقتدارا من الجميع على بلورة إرادة المقاومة لتحقيق الحرية واختارا جميعا بعد تنحيتهما – بواسطة القوات الفرنسية ، طريق المنفى.

ومن ثم لم يكن هناك أي شيء يبدو نادرا على مناهضة الاحتلال النهائي للقوات الفرنسية على هذا الإقليم.

ففي هذا الوقت بالذات ، قد ظهر في الأراضي السبخية لبلاد " باديبو" الاسم الماندينكي (ريب" الواقعة بين سالم في الشمال وغامبيا في الجنوب والمحيط الأطلسي وأطراف " فيرلو" في الشرق – رجل ذو قامة طويلة اسمه مابا جاخو با الذي اعتنق التيجانية بكل إخلاص وتفان ،وقضى على الأسرة الملكية الماندينكية التي دامت سيادتها على هذه المنطقة لمئات السنين وأسس على أنقاضها دولة دينية وقدم الأمان الإسلامي ل: " ماكودو" ثم ل: " لانجور" وحملهما على اعتناق الإسلام

، كما قام برفع راية الجهاد ضد طائفة " تيدو" واستولى علـى "سـالم" وغزا إقليم "جولوف" وكان ينوي فتح إقلـيم " بـاول" و"انجـامبور" و" كايور" ليتوصل من ذلك لو تم هذا المشروع إلى توحيد بلاد التكـرور والحسانين وبقية المسلمين، في المنطقة السنغامبية لتتـشكل مـن ذلـك دولة كونفدرالية إسلامية تقوم بنشر الإسلام في أحضان الوثنيين وطرد الفرنسيين من هذه البلاد.

وكانت بدايات أعمل هذا المجاهد ساطعة ومدويـة نـتج عنهـا انتشار دين الله في جميع الأراضي التي وطئتها حوافر خيله، وانتـشر الإسلام خلال سنوات معدودة في منطقة " ريب " وبقية إقلـيم " سـالم" وكان يشكل تهديدا جسيما للأسر الملكية الوثنيـة والإمـارات المحليـة والقوات الفرنسية في السنغال، إلى أن تحالف وتألب هؤلاء جمـيعهم للقضاء على ملحمة الرجل الذي سيحفظ الأجيال القادمة عنه أنه ناشـر الإسلام في إقليم " سالم" كما يشكل أحد أكثر عظماء تـاريخ المنطقـة إثارة للإعجاب وتمتعا بالشخصية الجاذبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

أسرة مابا

ولد " مابا جاخو " في قرية كبيرة اندثرت اليوم، تتواطأ الروايات الشفوية على أنها كانت تقع جنوب قرية" كرمسا بير جاخو " الحاليـة. وينتسب إلى أسرة شهيرة قد اعتنقت الإسلام مبكرا يرجع أصلها إلـى قبيلة دييانكوبي التي يعتزي إليها حاملو لقب " باه" في منطقة " باديبو"

وجده المسمى " إبراهيم ما باطي باه" الفوتوي الأصل ، هو الذي كان قد هاجر من مسقط رأسه " بوسيبا" في ظروف ضن التاريخ علينا بتوضيحها واتخذ من " جولف " محل قرار له.

هنالك نزلت عليه لعناية الإلهية فاعتنق الإسلام وأصبح مغرمـا بالدراسات الإسلامية إلى أن اكتسب ثقافة دينية قوية ثم كرسـه حياتـه لتعليم القرآن وتربية أسرته ومساعدة الداخلين الجدد في الإسلام علـى

اتباع مبادئه ،ولكتسب بسبب هذه الأعمال الجليلة شهرة وثروة كبيرتين في مدة وجيزة وأصبحت داره ملتقى المتعطشين للعلم والـدين وكانـت تتزايد مع مرور الأيام هالة التقوى والورع التي تحيط به.

وحرصا من هذا الشيخ على توطيـد روابطـه بوطنـه الجديـد وبإخوانه الجدد في الدين ، تقدم إلى خطبة الفتاة الجميلة المسماة " يندا لي" التي انجبت له ولدين هما :نجوغو باه وحما باه ؛ وبعـد أن بلـغ انجوغو باه تزوج الجميلة جاخو جبي بنت انغوبي انجاي حفيدة بوربـا " جولف " من نسل انجاجان انجاي.

وبعد إقامة طيبة ومثرية قد اختار " إبراهيم ماباطي با " الانتقال من جولف " إلى مناطق أخرى نحو الجنـوب بهـدف نـشر ديـن الله بصحبة أسرته إلى أن انتهت بهم خاتمة المطاف إلى إقليم " سالم".

وأوقفت هذه الجولة "إبراهيم" ماباطي با" على الفساد الذي سـببه انتشار الخمر والديانة الوثنية علـى حـضن الـشعوب مـن دعـارة ومنافسات دموية وتنكيدات طائفة " تيدو" هذه الارستقراطية العـسكرية الوثنية القاسية القلوب والمولعة بنهب أموال الشعوب وشـرب الخمـور والممقوتة من الفلاحين الضعفاء والشيوخ الفضلاء لكـونهم ينـشرون الاختلال والفوضى حيث مروا.

ولما وصل هذا الشيخ الفلاني إلى هذه الأراضـي الـسهلية ذات انخفاضات مستنقعية والتي تمتد محاذية نهر " سلم" واصـل مـسيرته حتى وصل إلى قرية " تورو " الواقعة داخل غاميـا الحاليـة وهنـاك أيضا توفي " إبراهيم ماباطي باه" وقبره لا يزال يشكل مزارا في هـذه القرية .

ولادة الشيخ مابا وتعلمه

وبعد وفاة الشيخ قرر " نجوغو باه" على مواصلة المسيرة نحـو الشمال، وبعد أيام من المشي سس بصحبة أسرته وأتباعه قرية "تـوا" المشتهرة إلى الآن والتي أخذ سمها من " توكلت علـى الله" . وهنـاك ولد له في أحد أيام سنة 1809 ، ولد ذكر أطلق عليه الـرئيس الجديـد للجماعة اسم " حامابا" تخليدا لاسم أخيه الصغير كمـا جـرت بـذلك

العادة، واشتهر هذا الولد في التاريخ باسم " مابا جاخو " نسبة إلى أبيه لقيا، وإلى أمه إضافة ، وقد تفوق "مابا " – منذ نعومة أظفاره – على أقرانه بالذكاء وحيوية العقل وذاكرة خارقة في الحفظ.

وقام والده المشهور بالتقوى والورع ، بتعليم ابنه المبادئ الأولى لقراءة القرآن وكتابته فور بلوغه الخامسة من عمره واكتشف فيه مواهب سابقة للأوان ، مما جعله يدرك بأنه يتعامل مع طفل ذي عقل متوفر وتعطش شديد للمعرفة وقدرة كبيرة على التحصيل العلمي عندئذ قرر إرساله إلى"كايور" عند الشيخ " مورامبي " الذائع الصيت الذي تكفل بمتابعة تعليم " مابا" عن كثب.

وحظي " مابا" بإقامة دراسة مثرية ب" " امياكول" في مدرسة " لونكور" حيث حفظ القرآن في الثالثة عشرة من عمره ، الأمر الذي لو حققه الآخرون لعجلوا بعودتهم إلى قواهم بخلاف " مابا" الذي انقض بعد حفظه القرآن مباشرة على تعلم مبادئ الفقه الإسلامي والتوحيد والنحو والتصوف وجميع المعارف التي صاغت شخصيته وعمقت ثقافته وبلورت عقله الشاب ليتكيف مع أصالة التعاليم الإسلامية.

بين مابا وأحد الرعاة

كان مابا ذا حس مرهف بالعدالة ، وهو ما زال مراهقا كما كان مشهورا باستشعاره العميق بمسئولياته وقوة عزمه وشجاعة قلبه مما حمل جميع المحيطين به على الإعجاب منه.

لقد نشب في أحد الأيام ، خلاف عنيف بينه وبين راع متسلح بالفأس ، وذلك لأن الأخير قد نفشت غنمه في النباتات الطرية من حقل شيخه ، وسبب هذا الخلاف تضاربا بالأيدي بين المراهقين ، وأدى تفوق مابا على الراعي إلى موته متأثرا بجروح بالغة قد أصابته من هذا العراك .

ولما حدثت هذه لحادثة المثيرة ، نصح بعض زملاء الدراسة ل" مابا" بان يلوذ إلى الهرب لكنه ، رفض رفضا شجاعا هذه النصيحة قائلا : " أنا لا أخاف إلا الله ، والله وحده ، لذلك أجدني على أتم

استعداد لتحمل تبعات هذا القتل التي تسبب مني خطا وقام أولياء القتيل برفع الأمر إلى " داميل " ملك كايور " ميس تاندا جور " المرهوب التي دعا " مابا : إلى المثول أمامه في " انغسان" وهو محط بوجهاء وأعيان منهم الأميرة لينكير انغوني لا تير " .

لكن على الرغم من هيبة الحضور وجسامة الموقف وخطورة الاتهامات ، فإن " ما با" الشاب قد أوضح دون تلعثم أو تهيب الظروف التي تم فيها هذا القتل ، بشجاعة نفسية وقوة شخصية أدخلتا الإعجاب في نفوس الحضور تجاه هذا الشاب ،واتفقوا جميعا على أنه كان في وضع لدفاع عن النفس ، ومن ثم لم يدينوه إلا بدفع دية إلى أولياء القتيل ،وعلى الرغم من كونه فاقد المال من حيث الموارد الشخصية ، فإن " مابا" قد تمكن من تسديد هذه الدية بفضل تضامن المسلمين معه وبفضل الحصان والبندقية الذين دفعتهما ليه " انغوني لا تير" أم لا تجور معجبة بشجاعته النفسية وبقوة شخصيته .

كانت بذلك تضع الحلقة الأولى من سلسلة العلاقات لمتينة التي ربطت – بعد سنوات – بين ابنها " لاتجور" بعد أن نحي عن عرش كايور وصاحب " باديبو" الألمام "مابا".

مابا يغادر كايور إلى جولف

قام الطالب " مابا " بتأجيل دراسته للذهاب إلى سالم بعد وفاة والده – رحمه الله – سنة 1827 هـ .

وكان عنده من العمر إذ ذاك ثمانية عشر عاما . ولما وصل إلى " سالم " أراد أفراد أسرته أن يمسكوه لكي يقوم بتربية وتعليم إخوانه لكنه لم يكن يريد أن يقطع التكوين الذي كان عازما على أن يقدمه لنفسه.

واستغل فرصة وجوده في باديبو بتسوية ميراث أبيه وزيارة إخوانه المسلمين وتوكيل أخيه " سا يير جاخو" القيام بأمر الأسرة بينما تكفل هو بتربية أصغر إخوانه " ما مر انداري " الذي ذهب معه إلى

كايور ، ثم أرسله من هنالك إلى موريتانيا عند علماء مبرزين أمسكوه لمدة ثمان سنوات ، وهو ينهل من علومهم .

ولما بلغ "مابا" سن الرشد وتوصل إلى ثقافة إسلامية قوية ، ارتأى أن يتخذ من " جولف" مقرا له إقتداء بوالده كما انتهج نهج أبيه بالتزوج من الأسرة الكبيرة لمنحدرة من نسل " انجاجان انجاي " وقبل "بوربا" .الحاكم في "جولف" ن يقدم له يد ابنة لخته " ~ـاتي انجاي " زوجة له.

وأسس " مابا" أسرته الأولى هنالك حيث عاش مع أخيه " مامر انداري " بعد أن رجع من مريتانيا — حياة طيبة وموفقة مقسما بين واجباته الأسرية ودراساته القرآنية.

الرجوع إلى سالم

وفي أحد الأيام جاء إلى " جولف" الأخ الثالث لمابا / عثمان باه بهدف إقناعه بالرجوع إلى "ريب" حيث كانت أسرته تعيش مغمورة بعد وفاة والدهم بين حالتي البؤس والرخاء ، وقال لمابا: يا أخي ، قد غادرتنا منذ مدة طويلة والإخوان قد كبروا وتوسعت الأسرة وشاخت أمهاتنا ، والأسرة الآن في حاجة إلى رجل مثلك وأهل القرية كذلك محتاجون لى علمك لهدايتهم إلى صراط الله المستقيم ، فكل لناس يطلبون محيئك ، ولن تستطيع أن تهرب من مسؤوليتك ، وخاصة أنك الأخ الأكبر ، فهنالك أشياء لا يمكن لأحد أن يقوم به محلك أرى بأن الوقت قد حان لرجوعك إلينا!

ولما فرغ من كلماته أجابه مابا قائلا:

يا أخي عثمان : لا شك أنك مصيب في كل ما تقول ولكنك تعرف بان قدر الله السابق هو الذي يوجه حياة كل إنسان ويبدو لي أن قدر الله هو الذي قادني إلى " جولف" حيث تزوجت وأنجبت ، وعندي في هذه البلاد روابط ووشائج لا يمكن أن تقطع بين عشية وضحاها ، وأرى أن حياتي خططت على النحو التالي : فلاحة حقولي وتربية أولادي ومواصلة دراساتي وتدريسي ، ويبدو – لي– أن قدر الله على هو الذي عين لي هذا المنحى .

أما الأسرة الموجودة في "ريب" فهي أسرتنا جميعـــا ، وأنــت تعرفها أكثر مني ، وليس هنالك ما يدل على أنك قصرت في واجباتــك كرب أسرة وأنا واثق فيك أكثر من أي وقت مضى . ارجع إلى البلـد واخبر أخواننا بأن "مابا" يرى بأنهم في أيد أمينة ما داموا معك. أما أنا لا أستطيع مغادرة جولف الآن وإن شاء الله سأنهي حياتي هاهنا!

عندئذ رد عليه عثمان قائلا:

– أشكرك على ثقتك لتي وضعتها في : هي تــثلج صــدري كثيرا كما أبدي إعجابي بطيب نواياك وأقدر صراحتك التــي عرفتــك بها منذ كنت، ولكن هذا لا يمنعني أن أذكرك بأن ريــب يــضع دائمـا أمله الكبير فيك وأرى بأن الله سبحانه وتعالى إنما زودك بهــذا العلـم العزيز والشهرة العطرة لكي تفيد منه إخوانك وأقربائك الذين هــم فــي أمس الحاجة إلى علمك .

– والوضع في "ريب"لم يختلف قيد أنملة عما عهدته عليــه ، كان والدنا العزيز يكرر دائما بأن هذه الأراضي خـصبة لأداء رسـالة الاسلام أكثر من أي وقت مضى ، وقد حان الوقت لكــي تقــوم أنـت بتحويل هذا الحلم إلى الواقع، لأجل كل هذه الاعتبارات ، أرجو منـك أن تتفضل علي بقبول هذا الطلب للرجوع إلى وطننا العزيز لمـساعدة إخواننا المسلمين على التخلص من الهيمنة الظالمة المفروضـــة علــيهم من الوثنيين ،ولعل رجوعك إلى البلد أيضا سيحول دون انطفاء شـعلة أسرة "با" الكبيرة التي سعت منذ سـنوات لتخـصيب هــذه الأراضــي بالدعوة الإسلامية.

– وأجابه "مابا" مرة أخرى قائلا:

– والله يا أخي إنك لتطلب مني أمرا صعب المنــال ، ولكـن اترك لي من الوقت للتفكير ، لأن هذا الأمر لا يمكن الحسم فيه علــى الحال، عندئذ بتسم أخوه عثمان ثم أضاف قائلا: خذ وقتا كافيا للتفكيـر نور الله القرار الذي ستتخذه في هــذا الأمــر وسـنعيد الكـلام فــي الموضوع ، غدا إن شاء الله.

ولما أوى "مابا" إلى فراشه ظل طيلة الليلة موزعا بين وفائه للوطن الذي احتضنه، والنداء العميق لوطنه البعيد الذي ولده.

ولما كان عقل "مابا" متوفزا في الفجر بسبب النداءات المتناقضة التي قضى ليلته موزعا بين مقتضياتها، نام نومة خفيفة ثم رأى نفسه في المنام ماشيا، نحو "ريب" عندئذ استيقظ ناهضا وهو يحمد الله سبحانه وتعالى على ما اختار له.

ولما انبلج نور اليوم التالي في الآفاق ، كان القرار قد اتخذ بالرجوع إلى " باديبو".

ولما أسفر الصباح ودع أهل القرية وأسرج فرسه واتجه بصحبة أتباعه نحو الجنوب.

وعلى قدر ما كان الشيخ يبتعد عن" جولف" ويجوب " كايور " ثم " باول" وخاصة " سين " أخذ يزن في حساباته – بحكم ما يرى من انحرافات – إلى أي حد كان أبوه مصيبا في قوله بأن المؤمنين الذين يعرفون الحق ويرحمون الخلق مدعوون دائما إلى أداء رسالة الدعوة والتربية والتهذيب بين أحضان السكان البائسين الذين يعيشون تحت نيران المماليك الوثنية.

الموقع الجغرافي لبلاد باديبو

لا بد من التذكير بأن أجزاء سينغامبيا الواقعة بين باول " وجولف ' شمالا وغامبيا ونباني " جنوبا " كانت تتشكل من مجموعات عرقية مختلفة توجد بينها ثقافة مشتركة ولكن متباينة من ناحية هيكليات التنظيم الاجتماعي والمعتقدات الدينية .

وكانت توجد في هذه المنطقة من شمالها إلى جنوبها ست دول هي : " نومي " وريب " و"نياني " و" ولي " رسالم" وسين " وكانت دولة " نيومي " و" ريب " ونياني" و" ولي " تشكل الأطراف الغربية لدولة " مالي " في أوج عظمتها ثم عرفت شيئا من الحكم الذاتي ابتداء من القرن الخامس عشر إلى أن انتصبت -بصفة تدريجية- ولايات مستقلة عن السلطة المركزية وعجل تفكك مملكة " جولف " الكبرى بإفراز هذا الوضع الاستقلالي ، وأصبحت هذه النزعة الاستقلالية

تترسخ أكثر فأكثر خلال القرن السابع والثامن والتاسع عشر بفضل تجانسهم العرقي المتركز أساسا على العرق السوننكي .

بدأ دخول الإسلام في المنطقة

يرجع تاريخ دخول الإسلام في هذه المنطقة إلى القرن الخامس عشر في عهد " وار جابي " إلا أنه كان دينيا هامشيا.

وأتى الإسلام إلى لمنطقة من ضفاف نهر السنغال مترسما خطاه – تدريجيا- عابرا الدول التي كانت توجد جنوب الضفة اليسرى.

ولم يكن الإسلام قد اكتسب صفة دين الأغلبية إلا في " فوتا تورو"

وتذكر الروايات الشفوية أنها كانت توجد في كل من :' نيومي " و" نياني " و" ريبب " و" وولي " تجمعات إسلامية تحت مشيخة داعية جولفي اسمه الحاج بوبكر انجاي ، ويرجع اعتناق هؤلاء للدين الإسلامي إلى تاريخ غير معروف.

وكان هذا الداعية الذي قاد التجمعات فترة من الزمن ، قد هرب من مسقط رأسه تحت حكم ألبوري صار انجاي المغتصب ، وبعد وصوله إلى المنطقة ، قام بجولات هنا وهناك إلى أن تمكن من حج بيت الحرام حيث رجع من مكة ومعه حمل وقبضة من تراب مكة المكرمة ، ومن هذا التراب وضع أساس مسجد "بومبولي" ولا يزال قبره موجودا هنالك.

فبفضل أعمال هذا الحاج اعتنق بعض السوننكيين الذين يشكلون العنصر العرقي الغالب في المنطقة الإسلام ، ولكن هذا الاهتداء لم يكن إلا سطحيا وذلك لأن الغالبية العظمى منهم استمروا ليس فقط على معقرة الخمر علنا، لكن جمعوا إلى ذلك ممارسة الطقوس الوثنية بالإضافة إلى تعاطيهم أعمالا غير أخلاقية .

وكانت هذه الحالة تنطبق خاصة على " **ريبب** " حيث كانت ارستقراطية ماندينكية ذات أغلبية وثنية ، تستغل سلطتها على حساب المسلمين ولا سيما في عهد " **جيريبا مارون**".

الأسرة الماندينكية في المنطقة

استمرت سيادة هذه الأسرة على المنطقة لمدة تزيد على خمسمائة عام عرفت خلالها عهود عام عرفت خلالها عهود ازدهار ومجد وبنت دولة قوية ردت على محاولات غزو أجنبية كثيرة أحدثها تاريخا هي تلك المحاولات التي قام بها بور سالم" سانديمبي " ثم بالي انداو" على الرغم من أن عظمة هذه الأسرة قد تضعضعت بسببه محاولات الغزو هذه إلا أنها ظلت مع ذلك مسيطرة على المنطقة من خلال أسرة " مارون " وأسرة " مامبوري "و" ديبا" وجامي وجاداما" وكانت البقية الباقية من السكان يتشكلون من ولوف مسلمين في أغلبيتهم كانوا يتعرضون لتكيدات ومضايقات هذه الأمراء الوثنين بسخط بالغ منتظرين بفارغ صبر اليوم الذي سيتم خلاصهم فيه.

أما أهل "سين" و" سلم " فكانا يتألفان من الجنس السيريري الذين كانوا وثنين متأبيين كيا اعتناق الإسلام حتى فضلوا الهجرة من" فوتا توروا هربا من الإسلام .

ووضعهم نزوحهم نحو الجنوب في اتصال مع الشعوب الماندينكية التي جاءت من " غابو" وكذلك الولوفيين الذين امتزجوا مع الماندينك في زيجات تولد منها أسرة "جيليوار " الجديدة التي كانت تشكل مملكة واحدة ، ثم انقسمت بسبب الصراعات الداخلية إلى دولتين هما: دولة " سين " وعاصمتها "جاخاو" ودولة " سالم " وحاضرتها " كاهوون".

وانضاف إلى هذه المجموعة الأولية من السكان التكاررة الذين قد وردوا على المنطقة بسبب حياتهم الرعوية الظاعنة.

وكانت الديانة الوثنية هي الغالبة في كل من "سين" و"سالم " مما كان يقدم لهيمنة الاجتماعية انسجاما وللارستقراطية الحاكمية قوة وسلطة راسختين.

وكانت توجد جيوب إسلامية في " اندوكومان " وباكالا في حدود ضيقة وضئيلة تنحصر أساسا في بعض الولوف والتكاررة.أو ندرة نادرة من الماندينكيين.

تأثر مابا ببيئته

كان هذا الوضع الديني المتردي يشغل بال مابا كثيرا وظل غارق التفكير أثناء سفره من جولف إلى سالم في الأساليب والوسائل التي يمكن أن يستعمله لمجابهة هذا الوضع .

وفي أحد الأيام توقف الشيخ وجماعته في قرية " بيكل " داخل محافظة " جاريخ".

ففي هذه القرية ، بدأ أحد المسنين السريريين المشتهرين بالكهانة يتأمل في " مابا" قبل أن يقترب منه قائلا له : أيها الشاب : ما اسمك ؟ ومن أين أتيت ؟ فأجابه قائلا: اسمي مابا جاخو باه وقد قدمت من جولف إلى باديبو حيث توجد أسرتي بهدف تعليم القرآن وأضاف الشيخ قائلا : هل يمكنك أن تتفضل علي بمشي بضع خطوات ؟ فقام مابا مغتاظا من هذه الأوامر الغريبة لكنه كظم هذا الغيظ احتراما لسن هذا السائل الغريب.

ولما انتهى من إيقاع تلك الخطوات همهم السيريري المسن بهذه الكلمات:

بالتأكيد لم انخدع، إنما أنت الذي رايتك البارحة في المنام ، يا بني ينتظرك مستقبل عظيم تكون حياتك مليئة بأعمال عظيمة، تخلد اسمك ولكن أحذرك إذا وجدت القوة والعظمة من شن الهجوم على "سين" لأن ذلك سيعرضك لخطر عظيم.

أما مابا وأخواه عثمان باه ومامرا اندري فقد ضحكوا ملء أسنانهم من كلام هذا العراف لأنهم كانوا يؤمنون بأن الله وحده هو الذي يعرف يعلم الغيب علما يدخله الانخداع ، وتذكروا أن أمثال هؤلاء كانوا موجودين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

ومن " سين" أخذ مابا طريقة إلى سالم مارا ب " كاهورن " حيث زار الملك " بالي انداو" ثم أجهد السير من هنالك لكي يصل إلى ريب بعد يومين ودخله بواسطة قرية " كرسانيير"جاخو" واستقبل الناس خبر مجيئه على أنه مغنم كبير لهم ، وقامت أسرته والمسلمون لتهنئته من كل صوب وحدب ،ويحمدون الله على رجوعه إلى مسقط رأسه.

ووجدوا أن الطفل الذي غادرهم مراهقا منذ سنوات عديدة ، قد عاد إليهم رجلا ناضجا ذا رأس فيه شيء من لصلع وذا قامة طويلة في مشية مهيبة على الرغم من عرج خفيف فيه، وذي وجه ترتسم عليه علامات العزم والجدية ،وكانت الأحاديث في جميع الأماكن تدور حول هذا القادم وغزارة علمه وفرط ذكائه ورسوخ تقواه ونضج تجاربه .

ويقال بأنه كان إذا قرأ القرآن في الصلاة توقف الدجاجات قوقاتها بسبب حلاوة صوته بلقرآن وأطلق عليه لقب تفسير مابا.

مابا والبلاط الماندينكي

انتشرت أنباء رجوع الشيخ الشاب في الأرجاء كسحابة دخان إلى أن وصلت إلى مسامع رجال البلاط الماندينكي .

ودعا جيريبا مارون القادم الجديد واستقبله في أبهة عظيمة وحرارة بالغة بهدف سبر نواياه وأحاطه بملاطفة عظيمة مقترحا عليه تعيينه قاضيا على مملكته ، لكن "مابا" رد هذا العرض بأدب جم مفضلا تكريس حياته لتعليم القرآن مما فتح أبواب الدعوة إلى الله على مصراعيها ، هذه الدعوة التي كان يؤمن بعمق أنه مدعو ومهيأ للقيام بها، كما طلب من الملك بنفس أسلوب الملاطفة أن يعطيه إذنا بتنظيم المحاضرات والأحاديث الدينية لصالح المسلمين وقبل ملك" ريب " منه هذا المطلب.

وهذه الفكرة هي التي كانت تحظى باستحسان إخوانه في لدين لأن بعض الوجهاء كانوا يدعونه إلى الاجتماعات ويرجعون إليه دائما في المسائل الدينية ، بل إن صمب طمبيد وكان قد أسند إليه بهمة تعليم أولاده الثلاثة أما اند لابوري فلم يكتف بتكليفه تعليم ابنه ، سران سيس بل أضاف إلى ذلك تزويجه ابنته ياسين كورا سيس ،وطدت هذه اللفتة روابط مابا بأرض آبائه كثيرا كما رسخت قدمه في بلاد "

باديبو" وقوت سلطته الروحية التي جعلت الناس يعتمدون نصائحه وآرائه في القضايا الجارية ، مما اكسب مدرسته الشهرة والاعتبار .

وكانت حياته مثالية تفرض الاحترام وتجعل القرارات الصادرة منه مثيرة لتعليقات متباينة ولما تمكن مابا من ابتناء دار له ، قام بجمع أفراد أسرته الذين كانوا متفرقين إلى ذلك الوقت كما قام بكفالة الأبناء الثلاثة الذين خلفهم ابن عمه سيدي امبومبي الذي كان قد توفي منذ سنوات، وفرح الناس كثيرا بهذه الكفالة.

ازدياد أتباع مابا

ظلت دائرة المعجبين بالشيخ مابا تمتد مع مرور الأيام إلى أن بلغت أبعاد جماعة متميزة ،وأصبح بيته لا يطيق احتضان كل الذين يأتون للالتحاق به .

ولما شعر بأن هذه النجاحات بدأت تثير الغيرة والحذر من الأسرة الماندينكية الحاكمة ، اتخذ قرارا مغادرة العاصمة تفاديا بالقيام أي نزاع سابق للأوان ، وهاجر مع أسرته وجماعته إلى محل مناسب، أسس فيه قرية " كر مابا" على غرار المدينة المنورة مهجرا النبي صلى الله عليه وسلم ونظم الأمور في هذه القرية وفق لتعاليم الإسلام وبني فيها مسجده وجزأ وقته بين أعمال الحقول وتعليم العلوم الدينية ، وكان يأتيه الطلبة من جميع القرى المجاورة .

واهتدى على يديه كثيرون من طائفة تيدو الذين كان ينطقهم بكلمة الشهادتين ثم يعلمهم لمبادئ الأولية للإسلام قبل أن يرسلهم إلى مدارسه القرآنية ليتعلموا فيها اللغة العربية التي تمكنهم من معرفة الإسلام من مصادرة مباشرة .

ومضت السنون والأتباع متزايدون باستمرار إلى أن أدى هذا الوضع إلى تغير ميزان القوى في " ريب" وبدأ المسلمون يحسون باقتراب الوقت الذي سيكونون فيه غير مستعدين لتحمل مضايقات الأرستقراطية الوثنية ، وظلمهم المتزايد ،وكان بعض الناس يندفعون اندفاعا شديدا للرد بالمثل لكن مابا كان ينصحهم بالصبر الجميل ، وضبط النفس إلى حين ، وكان يرى بأن لكل عمل وقته وبأن الله

سبحانه وتعالى سيريه بعض العلامات إن عاجلا أو آجلا لبدء هذا العمل.

في هذه الأونة كان هم مابا مستغرقا في كيفية الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان يقتطع مما يدره عليه حاصلاته الزراعية قسما كبيرا لهذا السفر ، وكان يضع هذه الأموال عند أخته لئلا يضطر إلى إنفاقها في الحاجات الطارئة.

المنطقة تستعد لاستقبال الحاج عمر الفوتي

هكذا كانت فكرة الذهاب إلى الشرق مستحوذة على عقل "مابا" وخاصة بعد أن تواردت الأنباء معلنة قرب زيارة الحاج عمر الفوتي للمنطقة .

وبدأ المسلمون ينتظرون بفارغ الصبر مجيء هذا اليوم العظيم وهم يسألون جميع المسافرين القادمين هل رأوا هذا الشيخ ؟ وكيف هو وما هو الوقت الذي سيرد فيه على " ريب" وما هو الطريق الذي سيسلكه ؟ ومن هو الشخص الذي يتشرف باستقباله ؟

كان الشيخ عمر الفوتي قد صمم -- بعد عودته من مكة – أن يقوم برحلة طويلة من فوتا جالون إلى فوت تورو ، وقادته طريقه إلى " غابو" حيث اتجه نحو الشمال مارا بكاسمانص وغامبيا ، ومن المستعمرة البريطانية ، قام بزيارة المناطق الشرقية ل: " سالم " قبل أن ينطلق نحو الغرب للذهاب إلى " ريب" حيث ستتوجه حاشيته المتواضعة نحو قرية " كاباكوتو" شرق باووس ديمار (الاسم السابق لنيورو).

قد استيقظت القرية مع الأذان الأول كالمعتاد في أحد أيام الأحد ، وبعد لفراغ من أداء الصلاة غادر الفلاحون منازلهم للذهاب إلى الحقول عندئذ تبدى عليهم موكب صغير يتألف من بضعة أفراد تبدو عليهم آثار التعب وهم يأتون من الطريق الملتوي المؤدي إلى المصلي العام للقرية حيث كان بعض رؤساء الأسر يتجاذبون أطراف المحادثة بهدوء.

وفجأة اتجهت جميع الأنظار نحو القادمين الذين يقدمهم رجل نحيف صاحب قامة طولة لا بس نفس لملابس التي يلبسها بقية الموكب ، لكن متميز عنهم بعمامة متدردة على رأسه وبور وصوله سلم على الجمهور قائلا:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وأجاب القرويون : وعليكم السلام

ثم قال لهم القادم: أريد أن تدلوني على دار رئيس القرية لأني أرى أن العمل الأول التي يجب أن يقوم به الخليفة، إذا دخل أية قرية هو أن يقدم نفسه بكل احترام إلى رئيسها.

ولما سمع القرويون كلمة الخليفة أثارت في نفوسهم دهشة، والتفت الأنظار في الحال إلى المتلفظ بهذه الكلمة وتأكد بأنه هو الشخص الذي تعلقت الشائعات بمجيئه القريب إلى المنطقة ، عندئذ غمرت قلوبهم سعادة غير قابلة للوصف.

وفي اللحظة قام بعضهم ليحلوه مجالستهم بينما تسارع الآخرون إلى مصافحته في الوقت الذي تحمس آخرون لقيادته نحو دار أسرة بوصو أسياد القرية.

ولما مثل هذا الضيف ساحة رئيس القرية واخبره باسمه ووظيفته، رأى الأخير أن يختبر ضيفه ليعلم هل هو الشخص الذي يدعى كونه حقيقة أولا وقال له:

كيف يظهر خليفة رفيع المكانة مثل الشيخ عمر طال في هذه الملابس المتواضعة ، وهو الذي عنده وسائل كافية للذهاب إلى مكة وإقامة مدة طويلة في البلاد الشرقية النائية وفي الحال أخرج الضيف من محفظته التي كان يحملها أحدا أتباعه ثوبا فاخرا ولبسه مع قلنسوة مبرقشة الألوان قد خيطت في وسطها ذؤابة بيضاء ملوية بطريقة فنية رائعة ،وعندئذ جثم رئيس أسرة بوصو على ركبتيه ليقبل يدي ضيفه وعيونه مفحمة بدموع الفرح والسرور ، وساعده الضيف على القيام قائلا له: قد قمت بواجبي حيالكم ، وكان بودي أن أمكث طويلا، لكن أريد أن أذهب الآن إلى إمام المسجد فتفضلوا علي بقيادتي أنا

وصاحبي إلى بيت الإمام ، ولما وصلوا وضع الشيخ عمر أمتعته على الأرض ، وتقدم نفسه إلى مضيفه الجديد الذي استقبله بحرارة وحبور ثم تبادلا كلمات ودية بينهما ، وقبل أن تبيئ للقادم غرفة ، وللوفد المرافق له، طلب أن يقاد إلى المسجد الذي كان بناية متواضعة مستطيلة الشكل محاطة بسياج من سيقان الدخن ومسقوفة بسقف من القش ، وكان المسجد يقع غير بعيد من المحل العام للقرية ، الذي كانت تظلله شجرة عظيمة نبتت منذ مئات السنين نظر الحاج عمر طويلا إلى بناية المسجد ، ثم قال : الله أكبر ما أروعها من بناية! إن مسجدكم هذا رائع التخطيط ، قل ما رأيت له مثيلا في إصابة القبلة،وإن هذا المسجد الجامع يشكل لكم - يا أهل كابوكوتو - شرفا عظيما، ولكن سيكون لكم شرف آخر أدعوكم إلى السهر عليه من الآن، قد علمني الله بأنه سينزل على هذه القرية - عما قريب - درة من مكة لإخصاب أرضها وسيغبطكم بقية المسلمين في يوم قريب.

وما انتهى الضيف من هذه الكلمات، نزع نعليه ودخل المسجد ثم كبر بصوت مرتفع ليصلي ركعتين جلس بعدهما مستقبل القبلة وبدأ يسبح بسبحة أخرجها من جيبه ولما فرغ بدأ يقرأ القرآن بصوت جميل، جعل جميع الآذان مصيخة للتمتع بحلاوة هذا الصوت.

وخيم على المسجد في ذلك اليوم جو ديني أخاذ وسط جمهور غفير من أتباعه ومضيفهم وقضى الشيخ عمر الفوتي ثلاثة أيام في " كابا كونو" بين الصلوات والتأملات وتعليم الدين.

وبعد ذلك غادر القرية لينعزل في مكان يبعد عنها بخمسمائة متر تحت ظل ممدود لشجرة وسط أحد الحقول.

هنالك كان يتوجه إليه الزوار من كل حدب وصوب ، ليصافحوه وليطلبوا منه الدعاء أما هو فكان يستقبلهم - مستقبل القلة بلطف وبسامة واهتمام مقدما إليهم النصائح والتوصيات والحث على التمسك بتعاليم لدين.

وفي صباح أحد الأيام التي نضاها الشيخ في هذه المحلــة أخبــر الجماعة بأنه سيستقبل ضيفين كريمين اسم أحدهما " مابا" واسم الآخــر " مامر انداري" وأمرهم أن يدخلوهما عليه دون تأخر .

واختار " مابا" هذا اليوم بالفعل وأسرج فرسه للــذهاب إلــى دار أخيه " مامر انداري" يقصد أن يصطحبا لزيارة هذا الرجــل الــصوفي الذي وصلت إليهما أخباره منذ زمان، وواصلا سيرهما إلى أن تبــدت لهم قمم أكواخ قرية يتوجه إليها لناس في أعداد غفيرة ، ووقفــا فــي حقل توجد فيه هضبة حجرية مرتفعة تقع شرق الطريق ، هناك نــزلا من فرسيهما ، رجلسا تحت ظل إحدى الأشجار وهــم ينظــرون إلــى القرية.

وقال " مامر انداري " لأخيه : إنني أجدني مجــذوبا إلــى هــذا الشخص منذ سمعت الناس يتحدثون عنه، وأكاد أتحرق من شدة شوقي إلى رؤيته ومصافحته والاستماع إليه وأجابه مابا قائلا: علــى الــرغم من اقترابنا من محل وجود هذا الشخص فإني أحس أن هنالك شــعور ينقدح في ذهني يقول لي: بأنه يجب أن تذهب أنت إليه أولا ثم تــأتيني بوصفه ، وذلك لئلا ارتكب أي خطأ في لقائي الأول معه.

فهاك جزء من الفلوس الذي جئنا به ، وأذهب لتعرف على هــذا الرجل ولتقديم هذا الفلوس هدية إليه حتى وإن لم يكن الــشيخ حقيقــة ، تعظيما للشخص الذي يتقمصه ،ويدعي أنه هو ، ثم ارجع إلي بــسرعة لتخبرني بالحقيقة ، وأنا انتظرك هنا بفارغ صبر ,

وقطع " مامر انداري " المسافة إلي توباكوتا التي تسودها حركــة غير عادية مواصلا مسيره بثبات نحو الشجرة التي كان يلتف حولهــا جمهور غفير .

وهو يتقصى من المارة معلومات عن هذا الشيخ الصوفي، ولمــا اقترب من الشيخ ببضعة أمتار بدا الناس يزاحمونه بشدة.

ولما وصل إلى محل الشيخ ونظر إليه اندهش بشدة وبدأت دقات قلبه تتسرع في غمرة من سعادة تلبية فائقة عن الوصف.

ثم قال في نفسه : بدون شك ، فإن هذا الرجل البسيط والوقور والجذاب إلى هذا الحد لا يمكن أن يكون إلا الرجل الذي أطلق عليه محمد المغيلي لقب أمير المؤمنين .

وعلى قدر ما كان يقترب من الشيخ كان يشعر بنوع من رابطة باطنية تربطه بهذا الشيخ ولما جثم على ركبتيه ليسلم عليه رفع الشيخ بصره داعيا إياه باسمه ، طالبا منه أن يعطيه الفلوس الموجه إليه ، قبل أن يقول له بكل هدوء : مرحبا بك يا شيخ مامر ، سلمك الله من كل سوء ، والآن بعد أن قمت بالمهمة التي كلفت بها . اذهب إلى أخيك "مابا" الذي ينتظرك في الطريق وقل ، له بأني انتظره وأن لا ينسى بنية الفلوس الذي في يده لأنه موجه إلي!

وقام " مامر انداري" من مجلسه منذهلا من هذا الكلام العجيب ، وهو سعيد ومغتبط إلى حد أنه كان يواصل كلمات الشكر والحمد لله ، ولما وصل إلى مابا ونظر إليه قرأ من سيماء وجهه شدة الاندهاش وعرف بان الرجل حقا هو خليفة الطائفة التيجانية ، الذي كان يود ويحن لى لقائه منذ أزمان ، ولما أخبره " مامر انداري " بما شاهد من العجائب خر ساجدا على الأرض ، تعبيرا عن شكره لله تعالى وتجسيدا لإيمانه لهذا الرجل وتسلميه له، قبل أن يسلك الطريق الضيقة المؤدية إلى قمم الأكواخ المسننة التي كانت بادية له من مرقبه.

ولما اقترب " مابا" وأخوه من المحلة قام الشيخ إليهما ليصافحهما ويتبادل معهما أحر التحيات ثم قادهما بخطوات وئيدة نحو المسجد حيث مكثوا ثلاثة أيام في جو من الصلوات والتأملات .

مابا يأخذ ورد التيجانية من الحاج عمر

ثم طلب "مابا" من الشيخ أن يعطيه ورد الطريقة التجانية ، وسأله قائلا: أخبرني هل تستطيع الوفاء بما سأقوله لك؟ بقراءة اللازم والوظيفة كل يوم قبل طلوع الشمس .وبعد صلاة العصر قبل مغيب الشمس بالإضافة إلى أدعيا وآداب متعلقة بالطريقة التيجانية.

أما" مابا" فكان يتلقى كلمات الشيخ كالبلسم الشافي وعيناه تتلمعان من الرضا .

ثم أضاف قائلا له: يجب على المنتسب إلى الطريقة التيجنيـة أن يراعي الأمور الآتية:

عدم استعمال أي ورد آخر غير ورد التيجانيـة ، والكـف عـن الاستمداد منه.

إقامة الصلوات بخشوع.

تعظيم الشيخ أحمد التيجاني وخلفائه.

احترام الوالدين والإحسان إليهما وطلب مرضاتهما وبعـد هـذه الكلمات توجه الحاج عمر مرة أخرى سائلا إياه: هـل تـشعر بأنـك مستعد للوفاء بهذه الأمور ؟

ولما أبدى " مابا" له استعداده الكامل للوفاء بهذه الشروط قال لـه الحاج عمر. إذن مد يديك لأبايعك. ولما مد يديه بدأ الحاج عمر يقـرأ الآيات قبل أن يأخذ بيد طالب الورد ووضعها على يديه وقـرأ آيـات أخرى قبل أن يقول له:

من الآن تنتسب إلى جماعة الشيخ أحمد التيجاني اعمل بتعاليمـه حيث ما كنت تر فوائد ذلك في الدنيا والآخرة وسأعطيك كتبا تحتـوي على جميع تعاليم الطريقة مع الإذن باستعملها ، لنفسك وتعليمها للـذين يطلبون ذلك منك من المتسبين إلى الطريقة.

ولما عزم مابا على مغادرة " تابا كوتو" بقلب مفحـم بالـسرور دعاه عمر الفوتي ليقول له : أظن بأنا لا نتـرءى بعـد اليـوم علـى الأرض ، وإن كان يوجد بيننا هدف مشترك وهو خدمة الإسلام.

ولقد علمني الله أنك تجمع المال للذهب إلى مكة ، وهذه مبـادرة طيبة على تقواك وإخلاصك ،ولكن ستمنعك من القيـام بهـذا الـسفر أشغال أخرى ، ولعل سيتمكن أحد أحفادك من انجاز هذا الـسفر أمـا أنت فلا.

وأعرف أيضا بأنك تنوي شن جهاد في " ريب " وهذا الأمر هـو الذي ستقوم به فعلا لأجل هذا أشجعك عليه بـشدة ، ولكـن لا تـنس

القاعدة القرآنية " لا إكراه في لدين " ولا تبدأ جهادك أيضا إلا بعد أن تصل إليك أخبار حروبي ضد الكفار في الشرق.

وأحذرك من مهاجمة سين إلا في المرحلة الأخيرة عند ما تكون معايير الجهاد كلها متوفرة. وأخيرا ، فخذ هذا لحجر الثقيل واصطحبه معك على ظهر فرسك في اليوم الذي تشعر بأنك قادر على رفعه فوق رأسك ، أعرف حينئذ أنه قد حان وقت بدإ جهادك ضد أولئك الذين يضطهدون المسلمين ويكرهون الإسلام ويستعصون على دعوتك.

وبينما كان فرسا " مابا" و" مامر انداري " يهملجان بهما نحو قريتهما وهما في حالة حبور وسرور عميقتين ، كان الحاج عمر الفوتي يخبر أهل كاباكوتو بعزمه على مغادرة قريتهم عما قريب متوجها إليهم بهذه الكلمات التوديعية الحارة:

إخواني في الله : إني أشكركم جميعا على الاستقبال الأخوي وحسن الضيافة والحفاوة بين ظهرانيكم أحسن قيام أماتكم الله على الإيمان والإسلام ، وجعل نعيم الجنة جزاءكم عني.

كان بودي أن أمكث معكم مدة أطول ، ولكن هنالك واجبات أخرى تدعوني في أماكن أخرى لأن علي رسالة عظيمة يجب علي القيام بأدائها عما قريب ، أطلب منكم أن لا تنسوني من صالح دعواتكم.

وأشكر جميع الذين أتوا من بعيد لزيارتي في هذا المكان ، فالله سبحانه وتعالى أسأل أن يبارك هذه القرية وأهلها وأن ينعم عليهم بعقيدة صحيحة ولتختم الجلسة بقراءة الفاتحة ثلاثا وصلاة الفاتحة.

بعد أن فرغ الحاضرون من قراءة هذا الدعاء والدموع تنهمر على خدودهم: غادرهم الشيخ الصوفي النحيف وبدأ يبتعد عن قريتهم حتى اختفى شبحه كليا في الأفق.

وحدث هذا سنة 1849 م

في اليوم التالي لمغادرة الشيخ ، نبتت شجرة على بعد أربعة أمتار من المحل الذي اعتاد أن يتوضأ فيه.

وبعد هذا بسنوات قدم إلى تابا كوتو شريف اسمه محمد الحبيب حيدرة وأقام هنالك بيتا لا يزال إلى اليوم موجودا على مدخل القرية .

ولما رجع مابا إلى ريب بدأ ينشر الطريقة التيجانية في محيطه إلى أن تشكلت حوله جماعة تطبق مبادئ الطريقة التيجانية ، ويأتون بطريقة منتظمة إلى جلسات الوظيفة في حماسة متزايدة ، وبلعكس كان حقدهم على السونينكيين الوثنيين يزداد مع مرور الأيام وأصبحوا لا يطيقون تسلط هؤلاء عليهم.

مفترق الطرق

في هذا الوقت كان يقترب فيه اليوم سينفذ فيه صبر أتباع " مابا" كليا بدأ صدى الأعمال الجهادية التي يقوم بها لحاج عمر الفوتي في البلاد الشرقية تصل إلى مسامع الناس في أرض " باديب".

وكان مابا يستقبل هذه الأخبار بفرح وسرور وعظيمين وهو عازم عزما قويا على مساعدة إخوانه المسلمين ضد أسرة جريبا وجميع الكفار عندما يحين الوقت ، وكان يختلي من حين لأخر ، ليتمرن على رفع الحجر الثقيل الذي يكون رفعه فوق رأسه علامة على حينونة وقت الجهاد ، واستمر على هذا التمرن والمحاولة مدة عشر سنوات ، ولكن على الرغم من هذه الجهود، فإنه لم يستطع أن يرفع الحجر فوق قامته.

ولما رأى الأمر يسير على هذا النسق ، تذمر يوما وهو يقول : إن إخواني المسلمين سيتعرضون لظلم هؤلاء مدة أخرى طويلة لا أدري متى يقوم جيريبا وطغمته السكارى بمهاجمتنا ؟ ثم تنهد قائلا : يا إلهي هيئ لنا فرصة لتصفية حساباتنا مع هؤلاء الوثنيين حتى يستتب حكمك في هذه الأرض إلى الأبد.

ولما أوشكت سنة 1860 م على الانتهاء استجاب الله لدعاء الشيخ ، وذلك عندما قام بعض رعايا " جيريبا" – وهم سكارى – بالاعتداء على أشخاص من لقوات البريطانية ونهب أموالهم ولم يتخلص هؤلاء منهم إلا بهربهم إلى باطرسه.

ولما وصل هذا الخبر إلى العقيد الإنكليزي دارسي الذي كان حاكما للمستعمرة الإنكليزية غضب لهذا الأمر غضبا شديدا ، ورأى بأن السونيكيين جاوزوا كل حد .

كانت الحكومة البريطانية تنظر إلى هؤلاء كقوة رئيسية ضد الإسلام في منطقة " ريب" لمضطربة" هذه من ثم كانت تعتبرهم حلفاء.

لكن كيف يمتنع الحاكم الإنكليزي من إرسال جنوده لمعاقبة قوم يطالب السكان الإنكليز بمعاقبتهم انتقاما لهؤلاء الضحايا؟

وقبل أن يقوم " دارسي " بأي عمل انتقامي ، أرسل إلى ملكهم وفدا رفيع المستوى لعرض خيار إصلاح الأضرار ورد الأموال المنهوبة وتقديم اعتذارات رسمية وقاطعة بأن مثل هذه التصرفات المهينة لاولن تتكرر على ناس تابعين للمستعمرة الإنكليزية .

ولما وصل هذا الوفد في مظاهر أبهة عظيمة ،وعرض على جيريبا" المطالبات الإنكليزية بلهجة دبلوماسية ، كاد الأخير أن يتميز من الغيظ بهذه المطالبات الإنكليزية الجريئة معلنا رفضها رفضا باتا.

وكاد يوقع عقوبة بالغة على هؤلاء المبعوثين الذين أبلغوا هذه المطالبات الوقحة.

وعندئذ اضطر دارسي إلى إرسال سرية لمعاقبة هؤلاء خوفا من تفلت الأمر من يديه .

وطلب من حاكم سيراليون مددا من الرجال وعبأ جميع القوى الإنكليزية الموجودة في غمبيا ونزلوا ب" سورا كوندا" في مطلع 1861 م وجرت بين قوات جيريبا والفيلق الإنكليزي معركة حامية الوطيس تحولت إلى مبارزات فردية رهيبة تعرض فيها السونينكيون لخسائر فادحة ألجأتهم إلى الهرب.

ونظرا لهذا الانتصار العظيم رأى الفريق الإنكليزي أن يعد العدة للهجوم على مدينية " سابا" المحصنة التي لاذ إلى الاحتماء بها فلول جيش سونينكي ، ولما شغل الإنكليز مدفعيتهم ، بدأت الحصن تتهاوى

وأصبح لجنود الأعداء معرضين لقذف المدافع الذي أبدهم إبادة فظيعة.

ولما غلب جيريبا بهذا الشكل المهين، قبل أن يوقع معاهدة السلام وفقا لشروط إنكليزية أضعفت سلطته في بلاد " ريب"

قام أتباع "مابا" المسلمون بضم قواتهم إلى قوات جيريبا في هذه الحرب، لما كان أمنهم الوطني مهددا من الأجانب ، على الرغم من المضايقات والتنكيدات التي كانوا يتلقونها من جيرانهم هؤلاء .

وكنت الشجاعة الكبيرة التي أبداها المسلمون سببا رئيسيا في صمود جش" ريب" مدة أطول أمام الهجوم الإنكليزي.

وهنا اكتشف جيريبا وجود جيش قوي وعتيد،لا بد أن يحسب له حسابه إزاء جيشه التي يعتمد عليهم للحفاظ على عرش أجداده.

لأجل هذا بدأ " جيريبا" يهتم من الآن لصاعدا بنشاطات الشيخ الفلاني وتباعه.

ومن الأمور التي عجلت الأحداث هجوم بور سالم كومبانداما على قرية " نانجيكي انتقاما من إهانة تعرض لها وهو أمير مغمور ،وسبّب هذا الهجوم الخسيس على هذا المركز القرآني ، مقتل سبعين من أجود حفاظهم ، وأسر الآخرين إلى " كهوون" قبل قتلهم دون أدنى رحمة وتحويل البقية الباقية منهم إلى عبيد.

ولما تدخل " مابا" لنصرة إخوانه المسلين في هذه القضية ، تركه جيريبا يتصرف بكل حرية ، ليعرف مقدار إشعاع الدعوة الإسلامية في مملكته .

ولما وصل إليه نجاح العملية التي قام به الشيخ أصبح مقتنعا بالخطر الذي يشكله "مابا" وتباعه ومن ثم أخذ يعد العدة للانقضاض عليهم قبل فوت فوات الأوان عملا بنصيحة أمين سره " بيراماسان".

قتل ماجاخير ومضاعفاته

بعد هذه الأحداث مباشرة ، قام " ماجاخير' ولي عهد حيريبا ، باغتصاب زوجة أحد المسلمين ،وذلك أثناء قيامه بقصف تعود مثله مع بعض نظرائه الماجنين المعربدين.

ولما علم أن ضحيته ، ذهب إلى " مابا" ليشتكي لديه هذا الظلم الواقع عليه ، قرر الأمير الوقح إهانة هذا الشيخ علنا ، وذلك بأن أرسل إليه مبعوثا ليأخذ منه إتاوة تتمثل في ثور يذبح في الحفلة العظيمة التي يدعى لها الناس بمناسبة اغتصاب هذه المرأة المسكينة.

وعلى الرغم من عظم هذا الاستفزاز ، فإن "مابا" ظل محافظا على هدوئه ،وذهب إلى بيته ليتمرن على رفع الحجر مرة أخرى جامعا في ذلك كل قواه حتى رفعه إلى وسط قامته ، وابتهج لذلك ابتهاجا عظيما ، ولكن لما أراد أن يرفعه إلى أعلى من وسطه تسوترت عضلات يده وشعر بألم شديد جعل الحجر يسقط بكل ثقله على الأرض.

وعند ذلك علم مابا بأن الوقت لما يحن مما سبب له حزنا عميقا.

ولما جاء إلى الحضور – بهذا الحزن - طلب أن يؤتى له بكسكس مع فاصوليا ، وبعد ذلك دعا على خج وأحمد خج ، وقال لهما خذا هذا واذهبا به إلى "ماجاخير" وقولا له بأن هذا هو جوابي على طلبته.

ولما وصل الرسولان إلى ولي العهد انفجر غضبه وقال: أيجرأ مابا أن يتحداني بهذه الإهانة أمام رعاياي أي عجرفة هذه ؟ ولكنه سيدفع ثمنا فادحا لجرأته هذه ، لابد أن يأتي ليلحس قدمي التماسا لعفوي ! ثم التفت إلى أحمد خج قائلا: أما هذا فغلوه ثم توجه إلى أخيه وصاحبه وقال له : لولا أني أحتاج إليك لتلقيت نفس المصير ،وارجع إلى سيدك وقل له بأني أطلب منه الآن أربعة ثيران بدل ثور واحد وإذا تأخرت هذه الثيران سقتل أخاك غدا على المحل العام . ولما تهيأ على خج للذهاب وهو مذعور ،التفت إليه ماجاخير وقال له : اسمع مني الكلمة الأخيرة :

قتل ماجاخير ومضاعفاته

بعد هذه الأحداث مباشرة ، قام " ماجاخير" ولي عهد حيريبا ، باغتصاب زوجة أحد المسلمين ،وذلك أثناء قيامه بقصف تعود مثله مع بعض نظرائه الماجنين المعربدين.

ولما علم أن ضحيته ، ذهب إلى " مابا" ليشتكي لديه هذا الظلم الواقع عليه ، قرر الأمير الوقح إهانة هذا الشيخ علنا ، وذلك بأن أرسل إليه مبعوثا ليأخذ منه إتاوة تتمثل في ثور يذبح في الحفلة العظيمة التي يدعى لها الناس بمناسبة اغتصاب هذه المرأة المسكينة.

وعلى الرغم من عظم هذا الاستفزاز ، فإن "مابا" ظل محافظا على هدوئه ،وذهب إلى بيته ليتمرن على رفع الحجر مرة أخرى جامعا في ذلك كل قواه حتى رفعه إلى وسط قامته ، وابتهج لذلك ابتهاجا عظيما ، ولكن لما أراد أن يرفعه إلى أعلى من وسطه توترت عضلات يده وشعر بألم شديد جعل الحجر يسقط بكل ثقله على الأرض.

وعند ذلك علم مابا بأن الوقت لما يحن مما سبب له حزنا عميقا.

ولما جاء إلى الحضور – بهذا الحزن - طلب أن يؤتى له بكسكس مع فاصوليا ، وبعد ذلك دعا على خج وأحمد خج ، وقال لهما خذا هذا واذهبا به إلى "ماجاخير" وقولا له بأن هذا هو جوابي على طلبته.

ولما وصل الرسولان إلى ولي العهد انفجر غضبه وقال: أيجرأ مابا أن يتحداني بهذه الإهانة أمام رعاياي أي عجرفة هذه ؟ ولكنه سيدفع ثمنا فادحا لجرأته هذه ، لابد أن يأتي ليلحس قدمي التماسا لعفوي ! ثم التفت إلى أحمد خج قائلا: أما هذا فغلوه ثم توجه إلى أخيه وصاحبه وقال له : لولا أني أحتاج إليك لتلقيت نفس المصير ،وارجع إلى سيدك وقل له بأني أطلب منه الآن أربعة ثيران بدل ثور واحد وإذا تأخرت هذه الثيران سقتل أخاك غدا على المحل العام . ولما تهيأ على خج للذهاب وهو مذعور ،التفت إليه ماجاخير وقال له : اسمع مني الكلمة الأخيرة :

يتشرفون بالمشاركة في الحرب الأولى التي يقوم بها المسلمون ضد الكفار.

وتكون جيش قوامه مائة وثلاثة عشرة مقاتلا (عدد أهل بدر) يتقدمهم شيخهم وأصحابه الأوائل ،وهم يتوجهون نحو " باسي خور" في جنح الظلام ، وبعد ساعات من المشي ، بدأت البيوت الأمامية لقرية ولي العهد الوقح تتبدى لجيش المجاهدين ، عند ذلك نزلوا على الأرض وكلفوا : كومبا كي" أن يتسلل في الظلام إلى "باسي خور" بقصد التعرف على بيت ماجاخير ،وبعد عشرين دقيقة رجع هذا المكتشف الماهر ليقدم تقريره إلى قائده الذي صاح قائلا : لننطلق إذن الآن .

وكانت القرية كبيرة ومزدهرة تسكنها بضعة ألوف ، ويتخللها في وسطها طريق ممتد على طول القرية تصطف البيوت على حافتيه بتتابع رائع ، وكانت تفرق بين المنازل طرق رملية بشكل عمودي ،وغرست بعض الأشجار على امتداد الطريق العام.

وكانت توجد على مداخل بعض المنازل مقاعد خشبية مصنوعة من جذوع أشجار وضعت على أربعة أعمدة ذات شعب.

ولما نزل الفيلق الإسلامي على الأرض – في وقت كان فيه كل شيء هادئا – وزع "مابا" الأدوار بسرعة وطلب من بعض الناس حراسة الخيول ، ومن آخرين الوقوف على الشوارع الرئيسية ثم انقسم المقاتلون صفين على جانبي الشارع العام ، يتقدمون بكل هدوء والأسلحة على أيديهم .

ووصلوا إلى دار" ماجاخير " بعد ربع ساعة من المشي ، ووجدوا بعض الحراس يحرسون داره ، وتقدم إليهم بعض من جنود للاستطلاع وأنزلوا عليهم ضربات قاتلة قبل أن يتمكنوا من التحرك عندئذ اقترب "مابا" من البيت الذي كان ماجاخير ينام فيه مع المرأة المغتصبة وصاح عليه قائلا: ماجاخير : قم إني أنا مابا جئت لاسترداد المرأة التي اغتصبتها من أحد أتباعي . اتركها تخرج تنج بحياتك.

ولم يجب ولي العهد الوقح على هذه المناشدة إلا بطاقات نارية صوب الباب المصنوع من سيقان الدخن ، وقبل أن يتمكن من شحن بندقيته من جديد احتل مابا وجيشه بيته وردوه قتيلا بأسلحتهم ثم أمروا المرأة المسكينة المتلبدة بالأرض من شدة الخوف أن تكتسي وتتبعهم في الحال.

وقبل أن يستيقظ أهل القرية ليسألوا عما حدث لهم كان المجاهدون قد أسرعوا خطاهم نحو قرية "كرمابا "

خبر قتل ماجاخير وأثره في سكان باديبو

قد أحدث خبر موت ماجاخير ذهولا كبيرا في القرية ، وشكل مادة للأحاديث في جميع سكان " باديبو" على قدر فرح المسلمين بالخبر كان عمق حزن السونيكيين ، وأصبح السؤال المطروح على الألسنة هو كيف سيكون انتقام الملك "جيريبا".

أما" مابا" – الذي لم يكن يجهل مغزى هذا الأمر – فقد اتخذ التدابير التي يفرضها الوضع فور الوصول إلى قريته سام ، وذلك بوضع المسلمين في حالة استنفار قائم وأمر أفراد من حرسه بالوقوف في جميع النقاط الإستراتيجية ، وهم ينتظرون صدور للأوامر لتنفيذها في الحال.

وفي هذا الوقت كان بيراماسان يحاصر الملك في السلاط بهذه الكلمات بأن الشيخ : أو لست قد أخبرتك بهذا أو قلت لك بأن هذا الشيخ يشكل خطرا كبيرا عليك وعلى ملكك ، ولو كان الأمر موكولا إلي لكنت قد أخمدت الفتنة في مهدها والآن قل لي بربك ما العقاب المرصود لمن قتل ولي عهد عرش توارثه 124 ملكا؟

وأنا أرى أن تطلق في الحال أمرا بتعبئة عامة لتخليص " ريب " إلى الأبد من هذا الدين الذي يهدد معتقدات آبائنا ، ويخضع حياتنا لقانون يسخر من تقاليدنا، وعليك أن تتخذ القرار اللازم – أيها الملك – وإلا فإن رعاياك سوف لن يفهموا هذا التردد منك.

ثم أجابه " جيريبا" قائلا: صحيح أنك – يا بيراماسان كنت تحذرني دائما من " مابا" ، ولكن لم يكن بإمكاني أن أعاقب مواطنا

وديعا، لم يكن هناك أية أدلة تدل على تهديه لسلطتي على الناس ولا أمني وقاطعه قائلا : لكنه الآن قتل ابنك؟ واستأنف الملك : صحيح أنك تعرفني وتعرف إلى أي حد كنت أحب ابني هذا ، وكم هو كبير الحزن الذي سببه مقتله عندي ، ولكن ومع هذا فإن ابني كان ينبغي أن يخبرني بمشاريعه لكنه لم يفعل. وقد استغل " مابا" استفزازه هذا لكي يعطي لعمله طابع عدالة ينزع عني القيام بأي عمل مبني على أساس مقبول ،وقد قررت ستشارة أرواح أجدادي قبل القيام بأي عمل.

عندئذ قال له بيراماسان : حذرك ومراعاتك سيؤديان بك إلى الخسارة ، أما أنا سأتكلف بدعوة " مالك كسبي" الساحر.

ولما جاء ساحر الأسرة الملكية – بصحبة " بيراماسان" والأمير " انطوني ماراماجامبي " سلم على الملك وهو منحن على ركبتيه" أبيت اللعن يا ملك " باديبو" أقول لك بأني استشرت الألهة وأعرف بأن أجوبتها سوف لا تروقك ، ولكن من واجبي أن أخبرك بالحقيقة ، وإن كانت مرة في حلقومك:

هل تتذكر على أني كنت قد قلت في يوم تنصيبك ملكا على عرشك أجدادك خلفا لماجوف جابو بأن جلوسك على هذا العرش سيبلغ مدة خمسة وعشرين سنة ؛ ولكنه لا يلغ الثلاثين ، وأن الرجل الذي سيخلعك يكون صاحب قامة طويلة وصلع في عرج خفيف، واعلم أن هذه المواصفات كلها تنطبق على هذا الشيخ لأجل هذا لا أرى من لحكمة شن الحرب عليه وأنا أنصحك أن تغادر مملكتك لمدة أشهر ثم ترجع عندئذ تستعد قواك .

عند سماع هذه الكلمات انفجر " انطوني ماراما" صائحا: يا مالك كسي ؟ كيف تتجرأ على أن تأمر وارث عرش دام 650 سنة بالهرب من وطنه ؟ ما هي المملكة التي تسع لإخفاء هذا الجبن المشين ؟ اخرج من هنا قبل أن أقتلك ، وإذا كانت أجوبة الآلهة تمنع "جيريبا" من القيام بهذه الحرب فإني سأقوم بها محله.

ولا أترك أبدا دم ماجاخير يهطل دون معاقبة قاتليه ما دمت حيا.
واذهب يا بيراماس واستنفر الناس وسأقوم أنا بنفسي حرب الانتقام ضد المسلمين.

القضاء على الأسرة الماندينكية

بعد هذا بدأت طبول الحرب تدوي في الوقت الذي كان الفرسان والمشاة المسلحون يخرجون مع جميع القرى وهم يحلفون بجميع مقدساتهم على أنهم سينزلون على المسلمين هزيمة نكراء، سيتغنى بها القوالون إلى آخر الدهر.

وعندما أخبر " مابا" بهذه الترتيبات الجارية بواسطة جواسيسه في " باسي خور" جمع أتباعه وألقى عليهم الخطبة التالية: أيها الإخوة في الله اعلموا أنه قد حان الوقت لمواجهة أعداء الله وأعدائنا مرة أخرى ، فبكل صراحة أقول لكم بأن هذه الحرب ستكون حاسمة ، وقد أخبرني جواسيسي بان هناك جيشا من الوثنيين تحت قيادة أنطوني ماراما جامبي " قد أخذ الطريق إلى قريتنا لغزوها ، وأنهم سيصلون إلى بيوتنا بعد بضع ساعات ، وإن انتظرناهم متجهزين في أماكننا سنتغلب عليهم بإذن الله تعالى . وستعلو راية الإسلام خفاقة في " ريب" ابتداء من هذا اليوم ، قد عاد أخي مامر انداري " بأخبار مطمئنة من خلوته التي اختلى فيها منذ أيام وتأكد بأن النصر سيكون حليفكم مكافأة عزمكم وتعهدكم .

والآن فليذهب كل واحد منكم ليتأهب، وغدا سنلاقي عدونا حفظكم الله ورعاكم.

وقامت المواجهة الأولى بين طلائع الجيشين في " مانداوار" وكان الصدام عنيفا دون أن يتزعزع أي من الجيشين ، وكانت الغلبة في النهاية للمسلمين على الرغم من الصمود العظيم الذي كان أبداه ساجو بير وجيشه.

وهرب السونينكيون إلى " دوي" التي كان يدافع عليها" جاما جيبي" وأخرجهم المسلمون منها بعد مبارزة دموية هائلة ، ثم اندفعوا

من هناك لنقل الحرب إلى " بينجا" مسقط رأس " جيريبا" لكنهم وجدوا في هذه القرية مئات من الرجال المسلحين ينتظرونهم بأقـدام راسـخة خلاف ما كانوا يتوقعون وتحولت المناوشة لصالح جـيش المجاهـدين وخاصة بعد أن انضم إليهم سكان قرية " ساليكيني" فجـأة ممـا أنـزل الهزيمة في جيش " أنطوني ماراما جيمي" وأدخلهم في ورطة خانقة.

ولما انهزم السونيكيون وبدؤوا يهربون بطريقـة مـضطربة ، لاحقهم المسلمون حتى إلى قرية " كرجاتا" حيث قام الحرس الشخـصي ل" جيريبا" بمعركة الدفاع الأخير عن الشرف لكن هذه المعركة انتهـت في بركة من الدماء غرقت فيها حياة القادة الرئيسيين للجـيش الملكـي وبذلك اكتملت الهزيمة.

أما جيريبا مارون فإنه قد تملص من لمقتلة بهرب مخز للالتجاء على قمة ربوة مرتفعة ، وذلك لما تبدى له أن الهزيمـة نازلـة علـى جيشه لا محالة .

هنالك شاهد عاجزا الهلاك الساحق الماحق الهابط على هامـات رجالاته الأصفياء.

ولما كان المسلمون يحتفلون بانتصارهم على أعدائهم في سـاحة المعركة التي لم يكن قد خبا أوار نارهم تنكر جيريبـا فـي زي فـلاح لقتل مابا غيلة.

ولما اكتشفه الجيش الإسلامي أنفذ إلى قلبه ضربة سـيف قاتلـة فخر في بركة من دمه الملكي.

وبهذا قد انتهت سيادة ماندينكية دامت سـتة قـرون ونـصف ، وكانت صفحة جديدة تبدأ في بلاد " ريب" كتبت عليها تلـك الملحمـة الإسلامية العظيمة في المنطقة السينيغامبية.

الوضع في " ريب" بعد القضاء على الأسرة الماندينكية.

في اليوم التالي لهذه المعركة ، بدأت تتوارد أفـواج مـن قـرى كثيرة ، لم تكن قد شاركت في المعركة ، لتبايع الـشيخ" مابـا" سـيدا جديدا ووحيدا البلاد " باديبو".

ولما رأى بعض أتباعه الكثرة المذهلة لهؤلاء المبايعين اقترحوا عليه أن ينصب نفسه رئيسا على "ريب" ولكنه رفض فكرة تولي أية وظيفة غير دينية لما تذكر النصائح التي وجهها المغيلي إلى لحاج عمر.

ولكنه وافق أن يطلق عليه لقب الألمام (الإمام) المتوائم أكثر مع المهام التي نذر نفسه لها.

وبدأ مباشرة أعماله كألمام باتخاذ قرارات ثلاثة هامة هي:

أولا: إعلان الإسلام دين الدولة، وجعل تعلم القرآن إجباريا على جميع المسلمين.

ثانيا: القيام بحملة واسعة لدعوة سلمية بهدف نشر الإسلام في أحضان الجماعات المتأبية على اعتناقه والكفار الذين كانوا متعددين في بعض الولايات.

ثالثا: تقوية أساس سلطته، وذلك بمساعدة السكان لتحسين أوضاعهم، وإتقان النظام الدفاعي عن طريق بناء قلع وحصون محمية في "كرمابا" و"جاخاو" و" باوس ديمار" الذي غير اسمه إلى " نيور" لما بلغته الانتصارات التي حققها لحاج عمر طال في تلك المدينة الساحلية التي تحمل اسم " نيورو"

وبعد اجتياز هذه المرحلة، دعا الشيخ إلى اجتماع لإعلان المبادئ والتنظيمات الجديدة التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية من الآن في " ريب"

أيها الإخوة في الله : اعلموا أنه كان آبارنا وأجدادنا يتعرضون، منذ قرون طويلة، لانتهاك حرمات وإهانات فظيعة من الأرستقراطية الوثنية المتعجرفة التي كانت تحكمهم، أما اليوم فقد تم بفضل شجاعتكم وجهادكم – قتل كثيرين من الظالمين وطرد الآخرين من البلد، فعلى كل واحد أن يطمئن نفسا بأنه سيبدأ عهد جديد للأمن والسلام في "ريب" حيث لا يخاف أي شخص على نفسه ولا أسرته ولا على أمواله ولا على أرضه.

وستصبح العدالة والمساواة والنظام هي الأسس الجديدة التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية في جماعتنا.

وقدوتنا لتحقيق ذلك هي القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وحياة الجماعة التي رباها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة.

من اليوم أطلب من الجميع العدالة والعمل بمبادئ القرآن في جميع تفاصيل الحياة اليومية.

واعلموا أن أساس التنظيم الاجتماعي في الإسلام هو المسجد الذي يجب إسناد إمامته إلى رجل عالم وأمين ونزيه لا تتطرق الشكوك إليه ويساعده للقيام بمهمته قاض يسند إليه حل الخلافات والنزاعات التي تقع بين الناس.

وأطلب من الجميع أيضا التسامح والأخوة والاحترام المتبادل سنسعى لبناء مجتمع التعاون والتضامن المبنيين على التوازن والانسجام وسنصل إلى ذلك إذا كان الصغار يحترمون الكبار والكبار يرحمون الصغار والأغنياء يساعدون الفقراء ولمساكين ، الله أسأل أن يديم حفظه علينا ويسدد خطانا وأمن الجميع تأمينا مشبعا على هذا الدعاء ، وهم يتبادلون مثل هذه العبارات : ها نحن الآن نعيش في عالم العدالة والأخوة حفظ الله إمامنا ومتعه بعمر مديد وصحة وعافية.

وعرفت منطقة " ريب" في الأشهر التالية: عهد سلام وازدهار لم تر له مثيلا في جميع أحقاب تاريخها، وحل الأمن محل الخوف والناس يقومون بأعمالهم بكل طمأنينة، والعدل يفض النزاعات بين الأشخاص دون تحيز. وسرت في المجتمع حياة جديدة قائمة على السكينة والسعادة في أغلب الأسر وبدأ الأمل يعود إلى الحياة من جديد بعد إصلاح الوضع .

وقام مابا بالإشراف على الولايات الجديدة بواسطة إدارة مرنة وراسخة تقوم على مبادئ القرآن والسنة المطهرة ويساعده على القيام بهذه المهمة أصحابه الذين هم : " مامر انداري " و"كاتم تيارنو" و"ماتار كالا" وسابير كان" و" اداري كان" و" بيران سيس" و" مامر

صامب اندوي" و" دمبا سيس" خل خـــج " و" وأحمـــد تبـــارنو نوبـــا"
وكومباكي " وعمر سن " و" ودونكـــي ســـاخو" و" ومـــامر جـــانكو"
و"جاتي" جينيغ" وحامل لقب توري .

دحر الفلول الأخيرة من الجيش الماندينكي.

في سنة 1862 حاول الناجون من الجيش الماندينكي إعادة تنظيم أمورهم بقصد جمع قواهم المفترقة فـــي "نيـــومي" وبـــدأوا يجمعـــون الأسلحة والقوت من أجل القيام بحملة طويلة يكون الهدف منها استعادة ملك " ريب" حيث لا يزال يوجد موالون مختفون لهم .

وساندهم في هذه المحاولة البائسة كثير من القـــرى الـــسونينكية التي لم تبايع "مابا" إلا على أساس حسابات ، واستغلوا الهدوء الـــسائد لعقد تحالفات مع هؤلاء رغبة للمشاركة فـــي حـــرب انتقاميـــة علـــى المسلمين.

وكانت من هذه لقرى قرية سانجال وساباخ ، أما مابا الذي كـــان على علم تام بالترتيبات الجارية على قدم وساق ، فإنه ظـــل متجـــاهلا لها بعد أخذ احتياطه اللازمة حيث لم يعـــد ينتظـــر إلا الوقـــت الـــذي سيهجم فيه الأعداء المتربصون .

ولما تهيأت القريتان لهذه الحرب ، سعى إلـــيهم وأنـــزل علـــيهم هزيمة شديدة دون صعوبة تذكر.

وفي نفس الوقت قام مسلم اسمه عمر فال بإخماد هجوم قـــام بـــه جمع وثني " نيوم " انطلاقا من مركز لهم هناك ، ثم وصـــل مـــسيرته الظافرة إلى قرية دار السلام ثم" باريدينغ" ثم "ايسو" مخضعا جميع هذه القرى باستثناء الذين عبروا نهر غامبيا في حالة هرب واضطراب.

وأصبح رجوع الأمراء إلى محاولة استرداد العـ[illegible] المانـــدينكي أمرا ميئوسا منه الآن ، من ثم رأى مابا أن يفرض على لمنطقة فتـــرة هدنة من الأعمال الحربية التي بدأت تثير الرعب في الـــسكان وأمـــر جميع محاربيه بالرجوع ودخل قرية شام في استقبال شعبي عارم.

وبينما كان الشعب يحتفل فرحا لدحر الفلول الأخيرة من المقاومة الوثنية ، كان الشيخ " مابا" غارقا في الصلاة وشكر نعمة الله على المسلمين.

ودخل في الإسلام خلال الأشهر القادمة بعض القرى التي كانت تنتظر مآل المناوشات بين "مابا" وبقية الأمراء السونينكيين.

وشكل دخول هذه القرى في الإسلام انسجاما أكثر للمنطقة من الناحية الدينية كما ساعد هذا الوضع على مزيد من توطيد التفاهم والثقة المتبادلة في السكان كما حقق لريب، شهرة كبيرة امتدت على كل المنطقة السينغامبية ، الأمر الذي كان يثير قلق جيرانهم على قدر ما كان يثير أمل جميع الممالك التي كانت في حرب ضد التوغل الأجنبي الاستعماري.

وصول وفد يطلب اللجوء السياسي لمجوجو

في أحد أيام فصل الصيف من هذه السنة ، جاء إلى مبا رجل يخبره خبرا مفاده وصول وفد كبير تحت إمرة رجل مضفور شعر الرأس كلفه ماجوجو داميل الحاكم في كايور – بعد أن نحاه لفرنسيون من عرشه – أن يأتي إلى مابا ليطلب له لجوء سياسيا لديه.

ولما وصل هذا الخبر أمر مابا في الحال أن تهيئ للقادمين دار مريحة ،واستقبلهم في اليوم التالي في جلسة عظيمة حضرها جميع أعضاء مجلس الوجهاء ، وأخذ رئيس الوفد فيها الكلمة موجها إلى المجلس هذا الخطاب : أيها الألمام القوي ، اعلم أن الوفد الذي أقوده قد جاء من بعيد ، وقد مشينا أياما وليالي دون أن تستريح خيولنا ، أما من نحن ، فإنا رعايا داميل ماكودو فال الذي سمعت الناس يتحدثون عنه.بدون شك ، فإلى وقت قريب كان هو الحاكم الوحيد الذي يحكم كل بلاد " كايور " ولما جاء الفرنسيون طلبوا منه أن يسمح لهم بإقامة خطوط تلغرافية تجوب قرى وحقول أهل كايور بهدف ترسيخ نظامهم الاستعماري، ولما رفض هذا الطلب الاستعماري ، استعمل لفرنسيون بعض فراد الأسرة الحاكمة في " كايور' ممثلين في شخص " ماجوجو" الخائن للتنحية به عن وظائف داميل التي كان يتقلدها شرعا،

ولما نجحوا في ذلك بسبب مساعدة الفرنسيين لهم، رأى ماكودو اختيار المنفى اقتداء بآبائنا الأباة للضيم والذل، بدلا من قبول حياة الرق والمهانة، وقد اختار أن يطلب اللجوء لدى بلدكم الذي بلغته أخبار متضافرة على أنه بلد العزة والمنعة، والعظمة والأريحية ، ولكن هل تجترئ على استقباله أيها الألمام المعظم ؟ مع العلم بأن الذي يحتضن عدو الأوربين وبورسين "صامب لاوبي فال" هو معرض لأن يصبح عدوا لجميع هؤلاء ، وطلب مني أن ألفت نظرك إلى الأخطار التي يمكن أن يجره عليك احتضانك إياه.

ولما فرغ وجه إليه مابا لكلمة قائلا: أشكرك أيها الرجل الأجنبي عن كل ما قلته ،وأرى بأن سيدك رجل مليء صراحة وعزة نفس ، وهذا الذي يبدو لي من خلال تصرفاته ، ومن خلال الرسالة الشفوية التي بحث بها من عنده أما أنا فأعرف بلدك وشهرتها القديمة بالشجاعة ، وسيكون جوابي سريعا مثل طلبك:

قل لسيدك داميل أما كود وفال بأن الألمام " مابا جاخو" لا يخشى أية قوة على وجه الأوض إلا بقوة الله أما الأوربيون والسالميون فإنهم ليسوا إلا كفرا أنجاسا من ثم ، فسلطانهم لا نفاذ له في بلدنا ، وشعبنا المجاهد لا يلقي أدنى بال ما لم يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن يمتنعوا عن شرب الخمر وأن يكيفوا معتقداتهم وأعمالهم مع أوامر الله ورسوله.

أما طلب اللجوء السياسي " الأمان الإسلامي 'فإني أوافق عليه لكن بشرط هي : أن يعتنقوا الإسلام بان يشهدوا أن لا إلا الله وأن محمدا رسول الله .

أن يمتنعوا عن شرب الخمر .

أن يخضعوا حياتهم السلوكية والعقدية لتعاليم الإسلام .

أن يقبلوا أن نحلق رؤوسهم للدلالة على الاستسلام لله رب العالمين .

وإذا وافق سيدك على هذه المقترحات فقل له: بأنه يمكن أن يعتبر " ريب" وطنه الجديد وسيكون بابي مفتوحا له ، ومن ثم أبواب

جميع منازل "باديبو" وبعد هذه الكلمات قام رسـول داميـل بانحنـاء تعظيم أمام مابا قبل أن ينثني راجعا مع أصحابه . وبعـد هـذا بأيـام وصل إلى القرية فرسان مع بعض العبيد في وقت الشفق كان مـاكودو وحاشيته هم الذين أتوا لإعلان دخولهم في الإسـلام ، وكأنمـا كانـت أشعة الشمس في ذلك اليوم تنتظر هذه اللحظة قبـل أن تختفـي وراء السحب، التي كانت تبدو لاصقة بالنهايات المتطرفة للحقول.

محاولات ماجوجو الفاشلة لاسترداد عرشه

وبعد أن اتخذ ماكودو من ريب أرضا جيدة لـه، بـدأ يهـاجر كثيرون من رجالاته الذين غادروا " كايور" معه وبـذلك اسـتطاع أن يكون جيشا خاصا به ، ورأى أن يستخدمهم في سبيل تحقيـق مآربـه الخاصة.

ولما تأكد من أن هذه لقوة عاجزة عـن الإتاحـة ل" مـاجوجو ديكين " في الوقت الحاضر ،فكر بأن يذهب إلى ابنه صـامب لاوبـي فال ، ليطلب منه أن يتنازل عن عرشه له حتى يعد قـوة تمكنـه مـن غزو كايور لاستعادة عرشه لمغتصب.

وكان اللقاء بين الأب والابن صاخبا، لأن الأخير رفـض كليـا فكرة التنازل عن عرشه واصفا أباه بأنه مغتصب، وخـرج الأب مـن عنده مجروح الكبد لاعنا ابنه الأناني.

وترددت العلاقة بين الأب والابن إلى أن نشبت مواجهـة بـين جيشيهما في معركة " كوي انجولي" التي كانـت الغلبـة فيهـا للابـن ،وهزم فيها جيش داميل السابق ، ومات أغلب أصحابه بعـد مقاومـة بطولية شديدة ، وأصيب هو بجروح بالغة ألجته على الانسحاب مـن المعركة ليموت بعد ذلك بين مارون وجاخاو متأثرا بتلـك الجـروح ، أما صمب لاوبي فقد اتخذ من جواده مطيته المفـضلة تجـسيدا لهـذا الانتصار.

ولما بلغ هذا الخبر "مابا" استاء منه بعمق وعلم بان علاقاته مع بور سالم ستصبح لا محالة متوترة من الآن، وعلى أساس ذلك أخذ احتياطاته اللازمة للوقوف أمام جميع الاحتمالات.

الحرب بين مابا وصمب لاوبي فال

وبعد هذه الأحداث بقليل ، قام شيخان من التكارزة اسم أحدهما " صامبا أوساني توري" واسم الآخر " شيخو جوب" لينشرا الإسلام في القرى المجاورة لسانجال وساباخ اقتداء بمابا وتأثرا بانتصاراته.

وكان في محلات متروية من هذه الأماكن بعض من الوثنيين الناجين من حملة للألمام الأخيرة.

وعلى الرغم من حالة الفوضى السائدة في جيش الرجلين وغياب التنسيق ، فإنهما تمكنا بغزو بعض هذه القرى وإخضاعها وانخدع الرجلان سبب هذه النجاحات السهلة حتى توصلا إلى فرض قانونهما على الولايات الموجودة شرق" ريب" وأوصلهما هذه الغزوات إلى بلاد "كايمور" حيث كان كومبان أوا نيلان حاكما تابعا لبور سين صامب لاوبي فال وابن عم وصهر له أيضا .

وحدثت مواجهة بين الرجلين وجيش هذا الملك الصغير سنة 1866 ولاحقهم قوات الشيخين وسحقوهم مرة أخرى حتى أن كومبان نيلان لم ينج إلا بالهرب إلى كاهوون.

ولما حكى ما حدث لصامب لاوبي غضب غضبا شديدا ، وجهز في الحال قواته النخبوية لملاقاة هؤلاء المسلمين في " اندام" حيث سحقت قوات بورسين الذي كان في أوج عظمته جيش الرجلين وأعاد الملك الصغير إلى ولايته.

ثم لمّا علم بورسين صامب لاوبي فال بأن مابا قدم اللجوء للناجين من معركة كوي نجولي عزم على تحقيق مشروعين يتمثل أحدهما في الهجوم على "ريب" من أجل احتلال عرشه الشاغر والمشروع الثاني هو شن حرب لوأد قوات "مابا" في مهدها.

ولكن كان من سوء حظ صامب لاوبي نزول المطر الأول في الليلة السابقة لليوم الذي حدده لشن هذه الحرب على "ريب" مما حمله

على تأجيل شن الحملة ضد جارته في الجنوب، خوفا منــه أن تطــول الحملة فتؤخذ وقت بذر " سونا " أساس غذاء رعاياه، أما مابــا فكــان يتابع باهتمام كبير استعدادات بور سالم هذه متأكدا من الخطــر الكبيــر الذي يخيم على أمن "ريب" بسبب مجاورته لإقليم" سالم" قوي ووثنــي ، يقدم اللجوء لأعدائه في نفس الوقت الذي يشكل قلعة للوثنية المناهــضة للإسلام .

ورأى بأنه إذا ترك صامب لاوبي يحقق طموحاته فنما بناه لمدة أشهر من الجهاد والتضحية سينهار ، وعند ذلك قام هو الآخر باتخــاذ تدابيره الخاصة ،وبدأ بعد العدة –سرا– للقيام بحملة كبيرة ضــد بــور سالم ، وذلك بتحريك كثيرين من جنوده المقاتلين نحو حدوده الــشمالية، وجمع ما أمكن من القوت والعتاد ، والدخول في تحــالف اســتراتيجي مع سالميين معارضين لصامب لاوبي.

ولما تم اتخاذ كل من هذه التدابير، أصدر أوامره للقيــام بهجــوم منسق.

واجتاز الحدود مواصلا مسيرته نحو كاهوون عاصمة " سالم".

وفي نفس هذا الوقت تجمع المسلمون الذين يعيشون في " ســاله" ليشكلوا وحدات دعم لإخوانهم المسلمين في ثلاثــة حــصون صــغيرة بتيهكات ، عملا بنصيحة وجهها إليهم الإمام " مابا" ومن جهة أخرى ، فإنه لما علم الشيخ مشاعر الحزن العميقة التي أثارها في "اــدوكومان" اغتيال "بولوب فاري" .

رأى أن يستغل الوضع وذلك، بالاتــصال – ســرا– بعــشيرة " جيلوار " المنشقة والمجتمعة حول كيوي يكي، ووقع معهــم معاهــدة عدم الاعتداء والتعاون المشترك ، وسبب له هذا التحالف انضمام أميــر "كومباجاكي" وأمير "بونتونغ" وأمير " دوكوب انداو" إلى صفه، وكــان لهذا الانضمام أهمية إستراتيجية كبيــرة لأنــه ســاهم علــى اتحــاد اندوكومان ، التي لم تكن قد نسيت مرارة أحداث كوي انجولي ، كمــا كانت ترى يد صامب لاوبي فال في اغتيال بولوب .

وكان هذا الوضع يهدد بشدة انسجام مملكة " سين" كما كان يقلل من فرص نجاحه في شن مملته على " ريب".

أما صامب لاوبي ، فكان فخورا بشهرته العربية ومنخدعا بالانتصارات التي حققها على صامب أوماني توري وشيخ جوب ،وكان لكل هذه الاعتبارات واثقا أكثر من أي وقت مضى على حتمية انتصار جيشه ظانا بأن جيش المسلمين ليس إلا قبضة من متعصبين هوج لا خبرة لهم بفن استعمال الأسلحة ، ومتخيلا من ثم ، أنهم سيتفرقون أباديد[1] عند الوطأة الأولى لحوافر فرسانه الذين لا تغلبون : أرض المعركة.

ونظرا لهذا التهوين من أمر جيش المسلمين ، فإنه لم يحرك لأجلهم إلا الوحدات التي كانت في كاهوون دون أية حاجة إلى مدد آخر من القرى المجاورة.

وقلم جيش " ماب" مع فرق السالميين تحت قيادة كل من "جوكوب انداو" وكومبا جانكي " وكولي آدم بيكي – بمواجهة فرسان صامب لاوبي في تهكات.

ودمت المعركة ساعات طويلة دون أن يسجل أي من الجيشين نجاحا على الآخر، وكانت الشجاعة وإرادة لتغلب متساويتين بينهما.

وحقق كثيرون من المحاربين أمجاد تالية لا يزال القوالون يتغنون بها إلى يومنا هذا.

ولما انتصف النهار رأى صامب لاوبي عجز جيشه عن التفوق على جيش "مابا" أمرهم بالانثناء لأنه كان مرقنا بان الأمر لو سار على الوترة التي كان عليها ، لتعرض جيشه لهزيمة نكراء في خاتمة المطاف .

وكانت هذه المرة الأولى التي ينسحب فيها صامب لاوبي هربا أمام جيش عدو وهو الذي كان بطل كل من : " بالي "وبساداف" وانديمين' و"كوي انجولي".

---

[1]) اشد تفرق.(لمعرب)

أما مابا الذي كان يشعر بأن الانتصار منه قريب، فقد أمر جنوده بملاحقة الفارين .

وتم سحق قلع المقاومة في" دكا ميجان" و"دكا "داوو" و" ماكا كاهوون" التي كانت مكتظة بحماية جيش ملك " سالم".

وامتدت الملاحقة حتى إلى مدخل كاهون عاصمة " سالم " القديمة التي لم تلوثها قدم غاز قبل هذا قط

وشنت طليعة الجيش الإسلامي حربا دامية الوطيس على سكانه، واحترقت سياجات منازل كثيرة مما سبب ذعرا عاما ألجأ رجال البلاط أنفسهم إلى الاحتماء في مخائبهم الأخيرة هاربين من المهاجمين الذين لم ير" سالم " لهم مثيلا واحترق صوت المؤذن من المحل العام للقرية حتى ملأ الأرجاء والآذان !!

وفي هذا الوقت كان صامب لاوبي وبقية فرسان يواصلون هربهم المخزي نحو " جاخاو" عاصمة " سين" وعند المرور في كولخ لدى بركة " انجوت" ساخت قوادم فرس بور سالم الهارب في المستنقع وارتمي الملك المخنوق على الوحل ، وهو يشتم جواده لذي كان يحاول التخلص من هذه الورطة ، وانطلق من نحره جمجمة قنوط مثيرة بينما كان العرق يتصبب من جسده.

وفي هذه اللحظة البائسة انقض صامب لاوبي على هذه الدابة المسكينة بسكينه من شدة الحنق حالفا بأرواح أجداده على أنه لا يغادر هذا المكان الملعون حيا ما لم يخلص الجواد – الذي أخذه من أبيه في معركة كوي انجولي – من هذه الورطة.

وكان لا بد من إعمال كثير من الذكاء لإخلاص هذا الحيوان من الوحل الذي ساخ فيه.

لأجل هذا لم يصل صامب لاوبي إلى " سين" إلا مع انبلاج ضوء الصبح.

أما "مابا" قد احتل عاصمة سالم" الخالية من من فيها ساعات طويلة قبل أن يأمر جيشه بالانسحاب ليدل الناس على أنه كان بعيدا

عن الحرص على إظهار القوة من أجل القوة والتعلق بالأمجاد الدنيوية.

ومع كل هذا فإنه لم يكد يصل إلى" ربب" حتى جاء إليه رسول يخبره بان جماعة تيدوا التابعة لبور سالم لد أتت بعتادها وأسلحتها لاحتلال سيني – الولاية الشرقية ل"اندوكومان" بقوة .

واستانف جيشه – في الحال – الطريق إلى سيني – وتمكنوا من سحق الغزاة مرة أخرى وطردهم من جديد حتى إلى أبواب "كاهوون"

قام صامب لاوبي مرة أخرى لطلب للجوء في مركز كولخ الذي قد بناه الفرنسيون عام 1895 م وعندما حدث هذا قام بور جيلور " باركا سيرانابو" واكتتب جيشا من المتطوعين وطلب من رئيس حامية كولخ أن يقدم لهم يد المساعدة من أجل طرد المسلمين ، وقدم له هذا الأخير بعض القطع من مدفعيته مع اثني عشر جنديا من مشاة البحرية تحت قيادة الرقيب " بوركه" .

وفي سبعة أكتوبر من هذه السنة تمركز جيش الألمام قبل طلوع الشمس أمام حصون أعدائه. وبدأت الاشتباكات بعد ذلك بنصف ساعة، وتراخى الفرنسيون عن المشاركة في الحرب وظنا منهم بأن حلفائهم سيتغلبون على المسلمين بسهولة ،وقاوم صامب لاوبي ساعات طويلة كلفته خسائر فادحة في رجالاته ، ولما شعر بان نهاية المعركة لا تؤذن بأنها ستكون لصالحه ، احتال لحمل الفرنسيين على امشاركة في المعركة ،وذلك بأن طلب من قواته أن ينقهقروا راجعين مع أسلحتهم داخل مركز حامية الفرنسيين وهو يرجو من ذلك أن يتبعهم محاربو"مابا" مما يعرض من المحمية نفسه للخطر.

وحدث بالفعل ماكان يتوقع بهذه الحيلة لأن الملاحقات بين الجيشين نتهت خاتمة مطافها داخل المحمية الفرنسية.

ولما شعر الرقيب / بوركه بالخطر لنازل على المحمية أمر بإطلاق نيران المدافع التي سببت قتلا ذريعا لكنها لم تمنع المعركة من الاستمرار إلى ما بعد الثانية عشرة ليلا في الوقت الذي كان صامب لاولي يحتضر بين يدي الأسان انغوني متأثرا بجروحه.

رفي ثمانية من شهر أكتوبر قفل مابا راجعا إلى "بساديبو" عند الساعة الثانية مخلفا ورائه كولخ .

كان دخول الفرنسيين في المعركة بسبب مناورة صامب لاوبي الذكية، فأحداث تعديلا جزئيا في مجرى الأحداث .

القلق المتزايد للفرنسيين من انتصارات مابا

في الوقت الذي نؤرخ له ، كان القائد الفرنسي ب" غوري " والحاكم الاستعماري للسنغال يخافان - مثل صامب لاوبي - خوفا شديدا من النتائج الخطيرة التي يخيمها على مصالحهم الصعود المتزايد لقوة المسلمين ، ولم يعد الأمور بالنسبة للفرنسيين - يقتصر على حماية التجارة ضد اعتداء بعض جماعات " تيدوا السكاري بل أصبح لأمر أخطر من هذا بكثير ، إذ بدؤا يشعرون بانه لو تمكن "مابا" من إحكام سيطرته على كامل أراضي سالم ، سيكون مستقبل الوجود الفرنسي في حوض الفستق نفسه معرضا لتهديدات شديدة ، في الوقت الذي كان الوضع الغامض في"كايور " يجعل من غير المحتمل إمكانية أي تقدم نحو دكار.

لأجل هذا ، قد أمر الحاكم الفرنسي جوريجيري بعد أسبوع من معركة كولخ أن يبحر ثلاثة مائة جنود مع العتاد والأسلحة اللازمة بهدف دفاع سالم مهما كان الثمن.

وفي هذا الإطار أيضا كلف كوتلاكلاريس إيصال جميع الأخبار والمعلومات الخاصة على رجوع القوة الإسلامية من ريب إلى غوري، كما قام الفرنسيون في نفس الوقت بوضح خطة لنقل الحرب إلى قلب " ريب".

وتنفيذ هذه الخطة كن يبدو ضروريا في حساب واضعيها نظرا لأن هناك حدثين جديدين قد عدلا المعطيات والأوضاع السياسية في المنطقة السينيغامبية ، والحدث الأول هو مرت صامب لاوبي فال حليفهم الرئيسي الذي كان يضمن إلى وقت موته انسجام القوة المترنحة لسالم ، وأما الحدث الثاني ، فهو انضمام لاتجور إلى جهاد

"مابا" واتخاذه من"ريب" محل قرار له بعد عداء مستحكم بينه وبين الفرنسيين.

وكان موت صامب لاوبي يشكل خطرا كبيرا على الفرنسيين لأن "فاكوبويا" الذي خلفه على العرش كن رجلا عديم الشخصية تافهاء مما جعل سلطته بعيدة عن الرسوخ.

ولم يكن يبقى من عظمة سالم في هذا الوقت- إلا الظل السوارف لتاريخه المجيد وكان العملان الوحيدان اللذان حالا دون سقوط المملكة هما قوة شخصية الأميرة "كومبا داكاسيرا دكاب' والشجاعة الأسطورية لحرس التاج الملكي.

وكان مما يعجل بمسيرة تفكك المملكة بروز قوات معارضة وخمود إدارة المقاومة وساد الإدارة وانشقاق الأمير "كومبا جانكي" علنا –ودخول ولايات كثيرة في تبعية المسلمين ، ومن هذه الولايات :كايمور و" لا كيم" و"باكا" ومانداك" وحتى " اندوكومان" لرائعة لم تشذ عن هذه الحركة وكنت تكفي أدنى ضربة لإخراج "سالم" من نطاق مطمع الفرنسيين.

وهذا ما سيحدث مع مجيء لاتجور إلى "باديبو".

انضمام لاتجور إلى جهاد مابا

لا بد من التذكير هنا أنه بعد إجبار " سين " و"سالم" على توقيع معاهدات مع الفرنسيين براسطة فيديرب لذي قام في سبيل حل مشكلة بعد جزيرتي "سانت لويس" وغوري" عن الوسط لأنهما كانا تشكلان المنطقتين الرئيسيتين للنفوذ الفرنسي وقته.

وكان هذا الحل يكمن في نصب خطوط تلغرافية لإتاحة إمكانية اتصالات سريعة بين قائد جزيرة غوري والحاكم الاستعماري " بسانت لويس ركل هذا لغرض مراقبة الوضع ورصد جميع تحركات المقاومة التي كنت تتهيأ للقيام في كل من:"باول" و"كايور" و" انجامور" .

وكانت حرب 1859 – بعد قضية بئر "انكيـك – لانجـامبور الذي بقي إلى ذلك الوقت عنيدا والاستيلاء علـى عاصـمة "نيـومري" عاملان قد أذهلا داميل بيراما" إلى حد العزم علـى إعطـاء موافقتـه للفرنسيين وأسخط هذا العمل شعبه عليه ، حتى عزلوه،وانتخبوا محلـه "مكودو" الذي ألغى هذا الإذن فور تسنمه عـرش "انجـامبور" ورد الفرنسيون على هذا الإلغاء بمواجهة في معركة "جاتي انشيرة وبعـد أن غلب فضال المنفى على الذل والخجل قبل أن يموت حرا في بـلاد " سين".

وكان هذا الوضع بعجب الفرنسيين كثيرا لأنه لـم يكـن ليـسمح بظهور حركات مقاومة جادة إلا بصعوبة بالغة.

من ثم كانوا يؤججون نيران النزاعات والمنافسات الداخلية بقصد استغلالها فيما يعود عليهم بالفائدة.

وفي هذا الإطار يدخل تعيين ماجوجو دميلا جديدا بواسطة حفنـة لا وزن لها..

ولما انتشر خبر هذا التعيين ووصل إلى " لا تجور" دخـل فـي انشقاق علني.

وكان لاتجور هذا أميرا ذا بنية فروسية كما كان محاربـا بطـلا ومدافعا متحمسا عن الاستقبال الوطني ومجسدا لرمز المقاومـة ضـد الأطماع الفرنسية ومكنته هذه المواصفات السامية من ضم جميع أهـل "كايور" المولعين بالعظمة والشرف إلى صفه حتى طـردو مـاجوجو الذي ذهب ليطلب الملجأ في مركز" لومبول" حيث طلب من الفرنـسيين أن يساعدوه على استعادة عرشه وتدخل كابتين / جوري كيـري سـنة 1862م حتى أعاده إلى منصبه ،واعترف بـه فـي هـذا لوقـت – " فيديرب " داميلا شرعيا على كافة بلاد " كـايور" شـريطة أن يتنـازل لفرنسا عن " انجامبور" و" امباوور" و"أندال" و"سانيا خور".

وعندئذ أعلن " لاتجور" رفضه التـام لهـذا التفكيـك التخريبـي لكايور كما رفض التدخل الفرنسي في شؤونه الداخلية.

وقام بنصب كمين للفرنسين في" انغــول انغــول" ســنة 1863م حيث أنزل الفرسان الكايوريون على الفرنسيين هزيمة شــكلت كارثــة كبيرة عليهم . وهلك منهم حوالي 150 رجلا بعض النظر عن كــابتين "لورانس" و" شفرال " ومساعدة سلاح المدفعية "كيشار" الــذين مــاتوا جميعا من هذا الكمين الذي كمن فيه خطرهم المكن.

وفي سنة 1864م قام بيني لابراد بإعادة "مــاجوجو" إلــى ســدة الحكم رغم أنوف رعاياه الكارهين.

وبعد اجتياز هذه المرحلة أعلن " بيني لا براد" لاتجور وجماعتــه خارجين على القانون كما فرض بصفة مؤقتة - محمينه على " كايور" ولما اتخذ بيني لابراد الحــاكم الاســتعماري للــسنغال، انــذاك هــذه القرارات في حق لاتجور وجماعته فضل أغلبية الأبطال الذين طالمــا حققوا أمجادا لتالية رائعة في كايور اختيار المنفى على ذل الخــضوع للسيطرة الأجنبية.

وكان من بين هؤلاء لاتجور وخاصة بصحبة "ديمبــا وارســال" و"ميسامباي" و"ارم ياكار "و"يوكوفول" وآخرين" من أقربائه وأصفيائه.

ومشى " لاتجور" على رس هذه الفرقة الصغيرة مــن الأبطــال نحو الشمال بهدف تهييج إمارات " سين " وسالم " لكي يتحــدوا ضــد الفرنسيين الغزاة وإخراجهم من"كايور" وواصلوا المسيرة حتــى بــدأت لهم في صباح أحد الأيام ، ضواحي عاصمة "سين" جاخاو" بعد مــشي مضن،هنالك أمر" لاتجور" بالتوقف والنزول على الأرض ، ثم تــشاور مع خواصه قبل أن يرسل مبعوثا إلى بور سين كومبا اندوفين ليطلــب منه استقبالهم .

ولكن كومبا اندوفين الأول كان قد قامت بينه وبــين الفرنــسيين علاقات ودية لبل سنوات من ثم لم يكن مستعدا لاحتضان العاهل الــذي طردوه من سدة الحكم وخاصة أن يدخل في تحالف معهم يهــدف إلــى مساعدة كايور!

وقرر التملص من طالب اللجوء عن طريق إصابة نخوته بطلــب مهين لا يمكن الموافقة عليه ، رأوصل إلى الأمير المخلوع من عرشــه

أنه لا يقدم له أي لجوء ولو مؤقتا – إلا بشرط أن يعطيه يد الأميرة "خورج امبوج" ليتسرى بها !! مما كان يشكل إهانة الشتم أحسن منها.

ولما بلغ الأمر لاتجور تلقي الإهانة بسخط عميق ولكنه لم يكن يستطيع القيام بأي شيء إلا أن أقسم في نفسه – سرا – بأنه سيقتص لهذه الإهانة في يوم ما!!

وتمركز بعيدا عن عاصمة اللئيم وأمضى ليلته هناك وعند الصباح لاحظ أن المدفع الذي كان قد أخذه من الفرنسيين في معركة أنغول انغول" قد اختفى ،وعرف في الحال، أن رجال "كومبا اندوفين " هم الذين سلبوه من أمتعتهم وهم غارقون في النوم.

وعند ذلك قفل راجعا بقلب مكلوم بسبب كل هذه الإهانات ومضى بمشي طويلا خلال الطرق السهلية الممتدة.

ومن " سين" ذهب داميل إلى " سالم" حيث استقبله " فالكابويا" بحفاوة لائقة بمكانته قبل أن يكلف أحد رجال حاشيته أن يخبره بطريقة مهذبة أن الملك لا يستطيع أن يقدم اللجوء الذي يطلبه.

وعند ذلك وضع لاتجور في ذهنه مشروع الذهاب إلى" ريدب" ليعرض على الألمام "مابا" مشروعه الطموح.

وهنالك سلك من جديد الطريق مع فرقته الصغيرة ومشوا تحت لفحة شمس محرقة حتى أنهكهم التعب والحرارة وبدأو يشاهدون على مقربة " سيكاتورم " فرقة من فرسان معممين ينظرون إلى واجهتهم وكأنهم يريدون أن يمنعوهم من المرور.

ولما شاهد لاتجور هذا التفت إلى من ورائه وأمرهم بأخذ الحذر والحيطة ثم استولى هو على سرجه ممسكا بيده على السلاح المتدلي من تحته وهو يتوجه نحو الفرسان المعترضين بتؤدة.

ولما اقتربت كلتا الفرقتين من الأخرى على قدر عشرين مترا ارتفع صوت قائلا:

السلام عليك أيها الأجنبي ! هل أنت داميل كايور حقا؟ إذا كان الجواب بالإثبات فإني أخبرك أن سيدي كلفي أن أسألك قبل أن تتوغل

داخل مملكته عن نواياك حتى يعرف كيف يتعامل معك. ورد لانجـور على هذا بقوله : من هو سيدك إذن؟

فأجابه مخاطبه بقوله : سيدي هو مابا جاخو ابن "انجوغـو بـاه وجاخو جي ألمام " ريب" وهـازم ماجبـاخير وجيريبـا وبـور سـالم والفرنسيين أما أنا فاسمي " بيران سيس: تلميذ الشيخ أحمـد التيجـاني وأحد المقربين لدى "مابا"

ورد لاتجور: طمئن شيخك بأن نواياي كلها سلمية وأخوية ، أمـا اسمي فهو لاتجور غوني لاير،دامـل الـشرعي ل"كـايور" وهـازم الفرنسيين في "انغول انغول" ولوغا وميخي والمنتصر علـى مـاجوجو ديكين ،كما أشكل الرمز الحي للمقاومة في كيور" هذا البلد الذي عاش فيه أجدادنا في عزة وازدهار وسلام وأصبح ليـوم مهـددا بمخـاطر كثيرة جاء إليه رجال أجانـب ذوو جلـد أبـيض ليطـردوا حكامـه الشرعيين ليحلوا محلهم عملاء تـافهين ، وليحولـوا آباءنـا وأمهاتنـا وإخواننا وأخواتنا إلى عبيد وإذا تحققت مشاريعهم المشئومة هـذه فـلا شك أن لأجيال القادمة سيلعوننا علـى تـرك أجانـب متغطرسـين ومستغلين.

يحتلون أرض الأجداد، وإذا تم هذا فإن شعوبنا سـتعيش عقـودا من الزمان تحت نير الذل وارق والاستسلام، وأنا لا أستطيع الموافقـة على هذا وسأحارب ما دمت حيا من أجل الحرية وعزة إخواني.

وعلما مني بأن سيدك يشاطرني هـذه لمـشاعر والاهتمامـات الوطنية، أتيت إليه لأطلب منه أن يقدم لي اللجـوء، ولهـذه الجماعـة الذين ينتسبون جميعهم إلى أسر عريقة وشهيرة.

ونحن جميعا سنتشرف بخدمة أهداف أمامكم.

ادخلوا قرية تورم ، وسيسهر أحد أصحابي هؤلاء على أن يقـدم لكم جميع اللوازم ريثما يأتيكم عما قرب جـوب الألمـام إن شـاء الله تعالى .

وبعد هذه الكلمات ، انقلب " بيران " سيس" على عقبيـه بـسرعة خاطفة إلى أن تبدد غبار فرسه في الأفق.

وفي اليوم التالي ، دخل الكايوريون قرية كارمابا المتميزة ، ووجدوا شيخها ينتظرهم في المحل العام للقرية محاطا بخواصه الوجهاء بحضور جميع أهل القرية واستقبلهم الشيخ والسبحة على يديه بهذه الكلمات الترحيبية.

السلام عليك يا لاتجور نرحب بك في أرض الإسلام ،ونحمد الله الذي قاد خطواتك إلينا كما أسلم على الأميرة " انغوني لانير" التي لا تميزني الآن بسبب السين ، أما أنا فلا أنسى أبدا ذلك اليوم الذي خفف داميل / ميسا تيندا فيه حكما علي بفضل لله ثم بفضل هذه الأميرة الكريمة ،وذلك بعد قتلي خطأ راعيا فلانيا نفشت غنمه في حقل شيخي بابكر امبي وأقول لك بأن هذه الأرض أرضك، أدخلوها بسلام ، قد هيئت لكم منازل خاصة بكم ستجدون فيها الملابس وجميع الأشياء التي تحتاجون إليها ، اذهبوا واستريحوا والحديث بقية.

ولم يستطع لاتجور وجماعته أن ينسوا ببنت شفة من شدة تأثرهم بهذه الأريحية العلوية بقدر ما هي مخلصة وحارة .

وعندما ما انفجر صوت المؤذن في فجر اليوم التالي، قام داميل وحاشيته ليعلنوا استسلامهم لله رب العالمين في مظهر عظيم ، وظلت الشمس مشعة على " ريب" طيلة ذلك اليوم ، وكأنها تعلن بذلك بدء حياة جديدة لداميل "كايور" وكانت شجاعته الحربية على موعد مع قضية جديدة.

أثر انضمام لاتجور إلى جهاد مابا

كان لخبر انضمام لاتجور إلى ألمام مابا واعتناقه الإسلام أثرا كبيرا حزن له جماعات نيدو كثيرا وهم يتصورون اليوم الذي سيأتي فيه مالاو فرس لاتجور ليدخل الهزيمة في صفوف أعدائه ،وكان الناس في جميع الأماكن والقرى لا يتحدثون إلا عن المجيء القريب ل" مابا" مع " لاتجور".

وأخذت التكهنات تذهب يمنة ويسرة أما الألمام الذي كان يتابع عن كثب القلق المستولي على أعدائه ، رأي أن يغتنم الفرصة للقيام بحرب نفسية مكثفة من أجل إحباط معنوياتهم .

وفي هذا الإطار أمر بتمركز قوات له على امتداد الضفة اليسرى لنهر سالم " وحدث هذا سنة 1864م في هذا الوقت بدأت شائعات تنتشر على أن هجوم "مابا" على المملكة جد وشيك واغتنم الفرصة بإرسال بعض من جنود يندسون في صفوف أعدائه من أجل رصد تحركاتهم وإبقاء الخائفين منهم في حالة هياج عصبي رهيب.

ونجحت هذه الخطة إلى حد أن بعض الأسر رأت أن تغادر أراضيها لتطلب اللجوء في المركز الفرنسي بكولخ.

واثر هذا الوضع على بور سالم خصوصا الذي ترك عاصمته التي كان يراها مهددا من مابا ، وذهب ليحتمي لدى الأوربيين ، ولكنه لم يأمن أن يمكث في كولخ لأنها كانت قريبة من" ريب" ولكي يبتعد أكثر من مابا أبحر هو وحاشيته على ظهر مركب مائي أوربي أنزلهم عند نقطة " سانثومار " وتوجه من هناك نحو "جاخاو" عند كومباندوفين الأول ، بينما تخلى سكان مملكته الذين هرب عنهم ملكهم عن أية فكرة للمقاومة ، حيث أن ما با لو كان راغبا في الاستيلاء عليهم لقام به دون أية مقاومة.

أما الحاكم الاستعماري الذي كان يتابع الأحداث عن كثب ، فرأى أن يعرض عن حلفائه التقليديين ليقترح على "مابا" أن يقتسما مناطق النفوذ وكتب فيديربا إلى مابا مستغلا جوابه على رسالة كتبها إليه يخبره فيها أنه حازم على محاربة جماعات تيدو أينما وجدوا .

واستغل فيديرب رده على هذه الرسالة وكتب يقول: كتبت إلي بأنك تسعى لهدف حميد ، وهو القضاء على هيمنة جماعات تيدو الذين لا يسبب حكمهم إلا انتشار الجرائم والاختلال الاجتماعي لأجل هذا اقترح على حضرتكم أن يعمل كل منا على تحسين نواياه لتحقيق هذا الهدف المشترك، وأنصحك أن تنظم أمور سالم قبل أن تقوم بغزوات

أخرى كما أحذرك من مهاجمة الممالك التي تربطنا علاقات الصداقة بها فلا اسمح لك بمهاجمة " باول" أما مهاجمة "كايور"

فإنها بمثابة شن حرب على سانت لويس نفسها وحاول أن لا تتعرض بسوء لا لمواطنينا ولا لمراكزنا ولا لأراضينا، الشاطئ كله من سانغومار إلى غوري مع جميع القرى الساحلية وأراضيها تحت ملكنا.

ومن الآن فصاعدا لا تقم بشن أية حرب إلا بعد أن تخبرني لنتفاهم معا في الموضوع.

وبعد وصول هذه الرسالة رد عليها الألمام ردا مخيبا لآمال حاكم المستعمرة إذ لم يكتف بإنكار كل سلطة أو وصاية لهذا الأوربي الخبيث عليه بل جاوز ذلك وأعلن رفضه الكلي لأي شكل من أشكال التعاون بينه وبين الفرنسيين كما بين له رفضه التام لجميع الادعاءات الفرنسية على السنغال مؤكدا له إرادته الصلبة على الاستمرار في سل سيف الجهاد لخدمة الإسلام ، ودعا فيديرب في نهاية الرسالة إلى أن يحدد موقفه بكل وضوح تجاه هذا المشروع.

وكتب إليه رسالة كانت بمثابة مفاصلة بينها:

باسم الله ذي الملك الدائم وكل شيء هالك إلا وجهه ، أما بعد: فأنا مابا لا أرى أي شيء يعنيك من أمور " جولف" أو "كايور" أو" باول" ولا" سين" ولا " بقية" سالم " قل لي ما هو الشيء الذي يعنيك في شأن هذه البلاد ؟ هل سكانه مسلمون أو نصارى؟ قل لي ما هو جوابك على هذه الأسئلة لأعرف كيف أتعامل معك؟ أما أنا فسأقتدي بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في مجاهدة الكفار الذين هم في جوارك ، ولا تحملنك الحماقة على الظن بأنك تستطيع القيام بأمر لم يقدره الله ، ولا تظنن أن جميع الوسائل التي اخترعها البشر قادرة على أن تسبب نتيجة ما إلا أن يشاء الله أنا لا أعتدي إلا على الذين يعتدون على المسلمين ، فأهل "جولف" و"سين" وبقية" سالم" يعتدون على المسلمين ، ونحن نتوكل على الحي القيوم ، الذي يتوكل عليه المؤمنون وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

واستقبل الفرنسيون هذه الرسالة من ألمام "باديبو" بالإضافة إلى خبر مجيء لاتجور واعتناقه الإسلام على أنها بمثابة إعلان سافر للحرب عليهم ، وأدرك الحاكم الاستعماري بأن هذا الشيخ لا يشبه في شيء هذه الارستقراطية الخسيسة الذين تعود أن يتعامل معهم ووجده غير مكترث بالإطراء ولا بأوساط الحلول وغير قابل للمساومة على مبادئه وعقيدته ، عازما على نشر الإسلام في جميع الأراضي الواقعة تحت سيطرة جماعات تيدو ولو كلفه ذلك معارضة الفرنسيين عندئذ قرر فيديرب أن يبدأ عمله دون تأجيل في اتجاهين هما:

أولا: العمل على تأخير تحقق مشاريع "مابا" وفي هذا الصدد ، طلب من بو المقداد أحد عملائهم أن يقود وفدا إلى " ريب" بهدف جمع أكبر قدر ممكن من الأخبار عن الألمام ونواياه تحت غطاء مزور للصداقة وحسن النية.

ثانيا: إيفاد ضابط اسمه فليزه إلى غامبيا لدى كولونيل / دارسي ليقترح عليه – باسم الحضارة والتجارة – أن يشترك في تحالف فرنسي انكليزي ضد شيخ " ريب" وإلا أن يسمح للفرنسيين باستعمال نهر " غامبيا" من أجل غارة منسقة بين جميع القوات الفرنسية التي ستهاجم مابا وجماعته شمالا وجنوبا من أجل الزج بهم في وضع قاتل.

وفي الحقيقة كان الحاكم الفرنسي منطقيا مع نفسه في اتخاذه كل هذه الاحتياطات ، لأن الأخبار التي تردهم من "سالم" كانت مخيفة جدا بالنسبة للفرنسيين وحلفائهم.

لأجل هذا لما انتشر خبر نكوص "خاجا بويا" قام أعيان مجلس مملكة "سالم" تحت مشاعر انفعال عميق – لانتخاب خلف له ، ووقع اختيارهم على "ساجوكا امبوج" الذي كان حاد المزاج متهورا وطموحا في نفس الوقت.

ولم يكد صدى (جونك جونك) لطبول التاج الملكي " التي دقت لحفلة تتويجه يخبو ، حتى أمر الملك الجديد بدق طبول الحرب ليمشي على الجيش الإسلامي الذي كان قد تعسكر بهدوء على الضفة اليمنى

لنهر سالم ودارت هذه المعركة أيضا في " تهيكات" حيث أبدى كل من "مابا" وصامب لاوبي " وزنه للآخر قبل ذلك بسنوات في معركة مشهورة.

وخسر "سالم " مرة أخرى المعركة ووقع هذه المسرة كليا في المعسكر الإسلامي وأصبح مركز كولخ بمثابة جزيرة في محيط من عواصف هوجاء .

وكان لهذا الانتصار الثاني في تهيكات أثر عظيم قد ساهم مساهمة فعالة على تقوية سلطة "مابا" وإثبات براعته ، مما حمله على السعي لإعطاء هذا الانتصار أبعادا إضافية وبدأ يهاجم نفس الأراضي التي احتلها الفرنسيون ، كما قام بإيفاد مبعوثين إلى سونكو ملك " سانيا خار" وإلى شيوخ كاب وير (الرأس الأخضر) وجاندير من أجل أن يطلبوا منهم المشاركة في حرب مشتركة ضد جماعات تيدو الموجودين في تلك البلاد كخطوة أولية لشن حرب تحرير شاملة ضد السيطرة الاستعمارية.

السلطات الفرنسية تقرر قتل مابا

ولما وصلت هذه التطورات الجديدة إلى سانت لويس هبت على مجلس إدارتها رياح خوف عاصفة.

لأجل هذا اجتمعوا بتاريخ 2 سبتمبر 1864 في العاصمة للمداولة حول المشروع الخطير عليهم الذي ينوي "مابا" القيام به.

وأصدروا في نهاية تلك المداولات المغمومة قرار بضرورة قتل "مابا" مهما كلفهم ذلك واصفين إياه بأنه " أبو الأخطار" le père des dangers ووضعوا خطتهم لحرب "مابا" قبل نهاية فصل نزول الأمطار بينما قووا عنادهم ورجالهم الموجودين بالقرب من " سالم " وتخديرا لحذر "مابا" قاموا مرة أخرى لإرسال مترجمهم أبو المقداد إلى " ريب" محملا برسالة يدعو فيها الحاكم الفرنسي "مابا" إلى التخفيف من غلوائه وإلا فإن كافة جماعات تيدو – في المنطقة السنيغامبية – سيتألفون مع الفرنسيين ضده مما سيسبب خسارة

للإسلام بسبب خطئه هو : وكرر في هذه الرسالة عروض السلام والتعاون ذاهبا إلى حد اقتراح توقيع معاهدة سلام وعدم اعتداء وعدم اعتداء يكون من شانها تصفية النزاعات الجارية وتحديد مناطق النفوذ المعترف بها لمابا وللفرنسيين والقضاء على جميع العوامل التي يتولد منها الاختلال الاجتماعي وخاصة الاعتداءات النازلة على المسلمين كما ستجبر المعاهدة أيضا ملوك جولف وكايور وباول وسين على أن يحكموا رعاياهم بعدل دون تمييز بين المسلمين وطوائف تيدو.

وسيكون من شأن هذه الاتفاقية أيضا وضع آلية استشارية للحفاظ على الوضع الراهن وتخفيف التوترات المستقبلية ، واقترح فيدريرب في نهاية الرسالة بأنه إذا حدث نزاع بين الأطراف المتعاقدة فإن القضية التي هي محل النزاع ستسلم إلى الحاكم الفرنسي في السنغال قبل نشوب أي عداء.

في الوقت الذي كان بو المقداد يسعى جادا لحمل "مابا" على توقيع هذه المعاهدة المكشوفة العورة والعوار ، كان الحاكم الفرنسي الاستعماري ، ينقل إلى بيني لابراد قائد جزيرة غوري – أوامره بالإبحار إلى كولخ في بواخر محملة بالجنود والأسلحة والعتاد ريثما يتلقون التعاليم .

وكان الحاكم الاستعماري يظن أن من شأن هذه التدابير أن تحمل "مابا" على تغيير فكرته وأن تفتت من عزمه ولكن هذه التدابير كانت بعيدة من أن تزعزع "مابا" وظل هادئا وقرأ الاتفاقية المعروضة قراءة متأنية متأملا مغزاها من ناحية مصالح الدعوة الإسلامية فقط ، وانتهى به التفكير الحر إلى القوقع عليها ،وذلك أن نص الاتفاقية مثلا سماه ألمام ريب وبقية سالم مما كان يشكل اعترافا رسميا بسلطته على جميع " سالم" مما كان يعني انتشارا نهائيا للإسلام في هذه المنطقة الآهلة بالسكان .

مابا يعين ولاته على أقاليم سالم

وفي هذه الظروف التي تنازل فيها الفرنسيون عن سالم لألمام ريب على الرغم من وعودهم البراقة ، دخلت الولايات الشرقية والجنوبية كلها في دولة "ريب" الإسلامية وقام بتعيين الولاة مسندا: "اندوكومان" إلى " سيديكا ولان" و"لاكيم" إلى " لايين درامي " و"كايمور" إلى بيران سين " وباكالا" إلى مامر سامب جوباي " و"جيلور" إلى " مامر نيانغ" و"انجافي انجافي " إلى " انجاكا ياندي"

وفي هذا الوقت كان الأمن سائدا والفلاحون والتجار آمنون في حقوقهم ونجارتهم وراية الإسلام خفاقة في كل مكان بصفة منتصرة ،والمسلمون يتنفسون صعداء في جو من الأمن والحرية ،واعتنق كثيرون من جماعات تيدو الإسلام ، أما عن اقتناع أو واقعية ملجئة.

وكان الجميع على العموم راضون عن الوضع باستثناء الفرنسيين وسكان "سين" الذين كانت حدودهم المشتركة مع سالم قوي ومسلم تفض مضاجع أمراء أسرتها الحاكمة.

وكان يسود في المنطقة توازن نسبي للقوى في بداية سنة 1860م بسبب عوامل ثلاثة هي:

أولا: بروز وضع جديد لعلاقات القوى ناتجا عن الانتصار الظافر للقوات الإسلامية على مملكة "سالم " التي دامت قرونا"

ثانيا: انمحاء الأسر الحاكمة التقليدية.

ثالثا: سريان مفعول معاهدة 1864م الناتجة عن رضاء الطرفين المتعاقدين بحل وسط ، لكنه لم يكن ليدوم ، لأن السياسة الجديدة كانت تشتمل على ملابسات لم يكن بد من أن تولد نشوب حرب جديدة لأن الفرنسيين الذين قلص هذا الوضع بصفة أساسية من مناطق نفوذهم ، كانوا يعرفون تماما بأنهم لا يطيقون الصبر طويلا على تفلت أعظم منطقة لرواج نجارتهم من أيديهم إلى يد قوة إسلامية بعيدة تماما عن الخضوع لسلطاتهم ، بل وتتحداهم من حين لآخر تحديات قابلة لأن تفقدهم بين عشية وضحاها جميع الترتيبات التي توصلوا إلى وضعها منذ سنوات .

أما" مابا" فكان يجد نفسه بعد هذه الانتصارات الباهرة على رأس مملكة تبلغ مساحتها 20000 كيلومتر أي حوالي 10 % من المساحة الكلية للسنغال .

وكانت هذه المنطقة تتكون من سكان مختلفي الأجناس والعروق في أرض خصبة تكتنف بقدرات اقتصادية كافية ، لتقديم المصادر المالية اللازمة لمواصلة نشر الإسلام في جميع البلاد الواقعة بين نهري غامبيا والسنغال ، وكانت السعة النسبية لهذه المساحة تطرح بشدة مشكلة الإدارة والسيطرة على الموارد الطبيعية والبشرية وخاصة بعد أن طحنت طواحين المنايا أصحابه الأوائل خلال الحروب المتعددة التي قام بها.

وكانت كل جماعة جديدة تعتنق الإسلام تحتاج إلى من يعلم أطفالهم وشيوخهم القرآن ومبادئ الدين ويقوم بتوجيه حياتهم الاجتماعية إلى حين ظهور أطر محلية متعلمة تعلما يمكنهم من القيام بهذه المهام.

مابا يبحث عن موارد بشرية لإدارة دولته .

ولما شعر "مابا" بأن الموارد البشرية المتوفرة لديه في "ريب" عاجزة عن القيام بهذه المهام ، رأى أن يسعى لاستجلاب مسلمين من ممالك أخرى لمساعدة إخوانهم في" سالم"

ولكن السؤال الذي كان يطرح نفسه هو: كيف يمكن استجلاب هؤلاء ؟ لأن غالبيتهم كانوا يعيشون في ممالك وقعت معاهدات الدفاع والحماية مع الفرنسيين وقعت معاهدات الدفاع والحماية مع الفرنسيين الذين كانت في حوزتهم وسائل حرب مرهوبة من شأنها أن تمكن حلفائهم من الصمود أمام كل من يحاول احتراف حدودها.

أما "مابا" فقد أعمل ذكائه لوضع خطة تهدف إلى إلحاق أضرار بالغة بالقوات الاستعمارية في مرتكزاتها ، وذلك بالعمل على تخريب التجارة التي كانت تشكل الأساسي الاقتصادي والمالي للقوات الاستعمارية ، لكي يسبب هذا الوضع هجرة واسعة للأقليات المسلمة

داخل المماليك الوثنية نحو أرض الإسلام الجديدة ، ثم يقوم – إذا تم هذا – بإعلان حرب ضد جماعات تيدو في أماكن مختلفة ،وعندئذ سيكون الفرنسيون مضطرين للسعي إلى إطفاء هذه الحرائق الناشبة في أماكن مختلفة، مما سينتج عنه توزع قواتهم الأمر الذي سيضعف نظامهم الدفاعي المتركز في بعض مراكزهم المحمية فقط.

وعند ذلك يتصل مابا بالمسلمين الذين يعيشون على ضفتي السنغال للقيام بعمل جهادي لفصل باول "سين" وكايور" وجولف"عن مناطقهم الداخلية النائية وتعريض أمنهم من الخطر حيث يضطرون إلى طلب السلام مقابل الاعتراف بالإسلام.

لينطلق "مابا" من هذا الإقامة كونفدرالية إسلامية تمتد من نهر السنغال إلى نهر غامبيا للتمكن من حصر النفوذ الفرنسي في المناطق التي دخلت تحت سيطرتها مؤخرا.

وبعد ذلك اختلى "مابا" في دار له بقرية "مكة سالم" لإجراء مزيد من التفكير حول الموضوع قبل القيام بأية خطوة عملية في سبيل إنجاز هذا المشروع.

وفي هذا الوقت ، كانت قيادته العسكرية بعيدة عن السكون ، بل كانت تقوم بحرب نفسية لإحباط معنويات العدو، وذلك باختراق جماعات من المسلمين بلاد العدو بين الفينة والأخرى وهم ينشرون أخبارا مفادها أن هناك هجوما وشيكا سيقوم به الألمام ثم يهربون.

وسببت هذه الشائعات في الحالات القصوى تعبئة جزئية للقوات المحاربة على حساب أعمال الحقول في تلك القوى .

وكانت أوضاع التوتر هذه تثير فزعا كبيرا في السكان الوثنيين كما كانت تدخل الحماسة ومشاعر القوة في نفوس المسلمين المتناثرين هنا وهناك.

كما أوقفت هذه الأوضاع تنكيدات النهابين، من بين جماعات تيدو كما كانت تنهك التجارة وتحدث اضطرابا في الأعمال الزراعية.

وكانت فصائل الجيش الإسلامي تحترق في بعض الأحيان حدود "سين" و"باول" و"كاجور" ناشرين بذلك مشاعر الذعر في السكان.

وكانت استعراضات القوة المحسوبة هذه تهدف صرف جماعات تيدو عن المشاركة في أي عمل معاد للمسلمين ونتجت عن هذه العمليات أيضا حالات نكوص هنا وهناك في نسب كانت تدل على أن بإمكان هذه الحركة إن استمرت أن تذيب جميع المحاولات الهادفة إلى مقاومة الجيش الإسلامي قبل قيام المعركة المنتظرة بتهيب!!

أما الأوربيون الذين كانوا يتابعون هذا الوضع المأساوي عليهم فقد اتخذوا احتياطات عجلت الأحداث ، وذلك بعد الحرب النفسية التي قام بها لاتجور مع فرسانه في بداية 1865 على أطراف "سين" و" باول" و"كايور" ومن هذه الاحتياطات إلحاق الجزء المركزي لمملكة كايور الإستراتيجية بالقوات الاستعمارية شهر مارس سنة 1865 لما خافوا نكوص الأسرة الحاكمة في كايور مما كان سيعرض للخطر إثبات الخطوط التلغرافية التي كان جاريا.

وقبل" ماجوجو" دون أن يحرك ساكنا هذا الاحتلال الفرنسي لأجل مقاطعة سينيغامبية مقابل تعويضات مالية تافهة كانت تكيفه لإشباع نهمه بالخمر والدعارة.

ولما انتشر خبر هذه الخيانة ، قام صامب ساراكولي قائد القوات الإسلامية بصحبة بعض العناصر من الفرسان الكايوريين مثل لاتجور " وديمب وار سال" و" ويوكو فال" على رأس فيلق للاستخبار وطلب المعلومات ، ووصل الفيلق مسيرته حتى إلى أبواب " امباكي باول".

ولما بلغ الفرنسيين خبر هذا التحرك ، ظنوا بأن هؤلاء يسعون لشن غارة متوقعة من ثم كلفوا كابتين فليزي ، بالتحرك نحو حدود كايور ، ولكن لما رجع رجال الفيلق الإسلامي فور انتهاء مهمتهم الاستطلاعية ، اتضح للفرنسيين بان حساباتهم قد خانتهم مرة أخرى.

سرية لاتجور إلى جولف والهدف منها

وبعد هذه الحادثة ، طلب لاتجور من الألمام أن يسمح له بالدخول إلى جولف " في سبيل وضع حد نهائي لهذا التفكيك التخريبي، الذي يتعرض له وطنه ، وكانت خطته تملي عليه أن ينطلق من" جولف " ليدخل في اتصال مع الولايات الشرقية ل" كايور" مثل "

كيت" وانجامبور" و" انكيو من أجل تقوية إرادة المقاومة التي قد ولدتها في مواطنيه تلك التسوية الخائنة والمشينة التي توصل إليها ماجوجو مع الفرنسيين ، ولكي يعبر من هذه القنطرة لتهيئة قيام ثورة شعبية ضد الفرنسيين ولنشر الدين الإسلامي في أرض كايور.

وهذه السرية إلى جولف كانت تحظى برضاء كبير عند الألمام "مابا" لأنه كان يحفظ في سويداء قلبه حنينا كبيرا نحو هذا البلد الجميل المحبب إليه ، كما كان يتألم من أعماقه لسيطرة أرستقراطية وثنية عائثة عليه.

لأجل كل هذه الاعتبارات ، أعطى لاتجور إذنه الكامل .

أقام لاتجور في صباح أحد أيام صيف سنة 1865 م بصحبة يوكوفال وبالا سخن الرئيس السابق لكوكي – على رأس فيلق يجب أن يحاذي "سين " و"باول" شرقا للوصول بعد أيام من السير المضني إلى مملكة بوربا الحاكم في جولف.

ولما وصلت السرية قرب قرية امبايار " فوجي بهجوم شنه عليهم أحد الرؤساء المحليين يدعى ثيندا تيور ، ظنا منه بأن المسلمين إنما جاؤوا لغزو مملكة سيرير ،وقام بهذا العمل الجريء لإيقاف توغلهم ، ورد لاتجور وسريته على هذا الهجوم ردا جعل المهاجمين يهربون متفرقين أباديد داخل بلادهم ولاحقهم المسلمون أولا في قرية امبايار التي نهبوها بحنق ثم في قلب " سين" قبل أن يرجعوا لمواصلة طريقهم.

وحملت هذه الحادثة "لاتجور على أن يقترح على أصحابه أن يتركوا في جميع النقاط الإستراتيجية من طريقهم فرسانا متنكرين بزي الفلاحين المحليين لكي يستطيعوا القيام بنشر الأخبار الخطيرة التي تحدث للسرية بالتناوب بين الأبدال[1].

ومن أرض "سين" دخل المسلمون أرض باول دون أية إعاقة ، ثم عرجوا من هنالك صاعدين نحو الشمال ، والنباتات تقل شيئا فشيئا وتحل فلاة شبه قاحلة مع بعض أشجار شوك هنا وهناك ، محل

---

[1]) وذلك بان يقوم كل واحد من الجواسيس المندسين في النقاط الإستراتيجية بنقل الخبر إلى آخر حتى يصل إلى لاتجور أو إلى مابا.(المعرب)

أشجار "باوباب" والسهول المعشبة التي كانت تقل وتتباعد حتى لا ترى إلا في مواقع المياه التي يبعد بعضها عن بعض ببضع ساعات من المشي.

وكانت الخيل متعبة بسبب لفحة شمس حارقة لكن مع ذلك واصلت سيرها ،كما لو كانت تحركها قوة غير عادية.

ولما بدأ المسافرون يقتربون من حدود كايور تنهد لاتجور من شدة الانفعال قائلا: أيتها الأرض المجيدة : عليك بمزيد من الصبر لمدة قصيرة واعلمي أنه لم يعد بعيدا ذلك اليوم الذي سيدق فيه طبول أجدادي لإعلان رجوعي إليك ! في هذا اليوم سترين كيف يطأ مالاو أرضك بجري ظافر.

عند هذه الكلمات رفع الجواد شعر عنقه وحرك ذنبه المصبوغ بحناء ، ورفع قائمتيه الأماميتين محمحما إقرارا لكلام صاحبه الذي ربت بيده اليسرى على رقبة الجواد بلطف ثم ناجاه قائلا : أعدك بأنك سترى هذا اليوم بإذن الله قريبا ، في ذلك اليوم ستجد نفسك على ظهر أرض كايور الرملية لطرد الأسرة الخسيسة خارج مملكتك هذه الأسرة التي اغتصبت منك مجدك وعزتك وسيادتك.

ولما بدأ المسلمون يدخلون أرض " جولف" دون أن يكونوا على علم بذلك شاهدوا مستطلعين لبوربا جولف على حدود دولته ، وهم يتقدمون حاثين خطاهم نحو غابة معشبة ،كانت تبدو من بعيد.

وعند ذلك قام مئات من المشاة واجتمعوا على شكل سرية متماسكة ومدرعة بالسلاح، يسندهم فرسان ورماة مرهوبون ، وجميعهم لا ينتظرون إلا أن يكون المسلمون في وضع مكشوف حتى يهاجموا عليهم.

ولما كان جواد لاتجور "مالاو" على القرب من الحدود الشمالية للسهل الممتد بحوالي مائتي متر بدأ يتباطأ في المشي رافعا خطمه على الهواء وناصبا أذنيه قبل أن يتوقف فجأة وجسده يرتعد بسبب حالة عصبية مفاجئة استولت عليه وعندئذ رمي صاحبه ببصره نحو

الأمام ، ظنا منه بان جواده قد رأى حيوانا لا يعرفه فأثار فزعه إلى هذا الحد .

وظل يحرضه على المشي لكنه بقي جامدا على حالته ، وهو يحمحم حمحمته التي طالما أدخلت الرعب في نفوس الأعداء في ساحات الوغى.

وزلزل لاتجور لهذه الحالة زلزلة شديدة وأدرك في الحال بأن جواده أبصر شيئا منبئا بالخطر وانتصب قائما على صهوة الجواد لينظر إلى الأفق قبل أن يشد لجامه نحو الشمال وهو يمشي نحو "بالا سخن" الذي كان في المؤخرة وطلب منه توجيه تنبيهات الحذر وقال له: أظن بان هنالك كمينا في طرق هذه الغابة لأجل هذا أري أن ننقسم إلى ثلاث مجموعات تواصل المجموعة الأولى المسيرة نحو الأمام تحت قيادة "يوكو فال" وتتنحى المجموعة الثانية عن الدرب متجهة نحو تلك المآرضة[1] التي تشاهدها في الشمال ، وتكون أنت على رأس هذه المجموعة ، أما أنا سأتجه نحو اليمين مع بقية الرجال ، فبهذه الكيفية يمكننا مساعدة بعضنا لبعض عند الاقتضاء بدلا من أن نجمع قواتنا في جبهة واحدة.

وحاول أن تكون الخيل التي تحمل الزاد والمؤن موزعة هي أيضا على هذه المجموعات الثلاث.

ولم يكد المسلمون يبدأون في تنفيذ هذه الحيطة حتى رأى جنود بوربا بأن مكيدتهم قد اكتشفت مع ذلك هجموا على المسلمين على الفور.

ودوت طلقات نار وصيحات حرب من البنادق والصدور في الوقت الذي كان الفرسان والمشاة منتشرين في الغابات عشرة عشرة يختارون مواقعهم بعناية ثم قاموا بهجمات مندفعة بشدة والفرسان في الوسط .

ولما بدأت المواجهة أمر "لاتجور" رجلين بان يذهبا لإخبار الحراس الذين تمركزوا في النقاط الإستراتيجية بأن "بوربا" استعمل

---

[1]) جمع مارضة (المعرب)

جميع قواته في الهجوم على لاتجور رجماعتـــه ، وبــدها ذا أطلـــق صيحة رهيبة ليعطي الإذن ل:" يوكافل" بالهجوم أما هو فقد دخل مـــع مجموعته في مناورة عسكرية ذكية كن الهدف منهـــا تـشتيت قــوات العدو لإضعافه .

حيث انطلق في اتجاه عمودي لمحور تدخل أهل " جولف " وقــد أولى ظهره لمهاجميه كما لو كان يسعى لتجنب الدخول فـــي مناوشـة معهم واتجه بمجموعته نحو الشرق، رلما انفصل من الفرسان فـصيل لملاحقته ، استدرجهم لكي يبتعدوا عن فرقتهم بدرجـــا كافيـــة عندئـذ انقلب هو رجاله فجأة على أعقابهم ، رهم يـشكلون سـرية متماسـكة لمقاتلة هذا الفصيل لمنفصل، وهم يلاحقون لاتجور وجماعتـــه لأجـل هذا لم يستطيعوا مقارمة هجمة المسلمين عليهم وزلزل كثيـــرون مـــنهم وسحق الأخرون .

أما " بوربا جولوف" الذي كان يتابع مجريات هذه الأمـــور عـــن بعد ، فقد خرج من الحلبة راكبا جواده الأبلق مع صفوة جنـــوده وهـــم يطلقون رشقات نارية عنيفة صوت لاتجور وجماعته ، وكان لاتجـــور يلبس طربوشا ذا خبيلة حمراء ،وتتدلى من كلا منكبيه بندقيـــة وعلـــى خاصرته سيفان على شكل صليب وهو يـــوخض بركـــا بـــه الـــذهبي خاصرة جواده مالاو الذي انطلق يعدو كالزوبعة ناشر شعر العنق.

ولما تقارب الجيشان بمقدار خمسين مترا، انقـــسم المـــسلمون - فجأة – إلى صفين محيطين بالمهاجمين الذين ذهلوا مرة أخرى ، لأنهم يظنون بان هجومهم المركز سيشتت قوة المسلمين ،وقبل أن يفيقوا مـــن هذا الشداه ؛ كان لاتجور وفرقته ينزلون عليهم ضربات قاسية بعـــد أن أحاطوا بهم وهم في حركة دائرية بائسة.

ولكن لما بدأ أهل " جولف" يتملصون من هذا الوضـــع الخـــانق، واستعادوا قواهم وبدأوا يردون على المسلمين ردا عنيفا وخاصـــة فـــي المبارزات الدموية التي عقبت المناوشة الأولى.

وأثناء هذا الوقت ،كان " بالا سخن" وفرقته يواصلون مسيرتهم إلى الحدود اليسرى للغابة حيث أمر مجموعته أن ينزلوا على الأرض لمواجهة مهاجميهم .

ولم تكد الطليعة من أهل جولف تجتاز المنطقة ذات الأعشاب الرفيعة قبل وصول إلى محل الأشجار الكبيرة المصطفة ، حتى انهالت عليهم طلقات نيران المسلمين وهي تحدث أزيزا رهيبا.

وبدأ ذوو الخبرة القتالية منهم يقفزون من ظهور دوابهم لاصقين بالأرض وزاحفين نحو لغابة والأسلحة في أيديهم ، ولما اقتربوا من هدفهم بمقدار ثلاثين أو عشرين مترا لم يفاجئوا إلا بحرين كبير تصعد ألسنة لهيبة ،وهي تلتهم الأعشاب والجنبات بسرعة مذهلة وفهم أهل " جولف' أن هنالك مكيدة خطيرة على وشك أن تنطبق عليهم وأرادوا الرجوع على أعقابهم ، ولكن ارتفاع اللهب وسعة الحريق قد أجبرهم على الانثناء وظهورهم معرضة لأعدائهم الذين شيعوهم برشقات نارية شديدة غطت الأرض السوداء بمئات من الجثث والقتلى.

واضطر بوربا" أن يطير مرة أخرى لمساعدة رجاله هؤلاء الذين كانا في وضع سيء للغاية ،وبعد تلك أمر جنوده بالانسحاب – كليا– من المعركة لما شعر بان نهايتها لا تبشرهم بخير.

وكان هذا الانسحاب لصالح لاتجور وجماعته أيضا لأنه حصل في الوقت الذي كادت قواهم أن تخور على الرغم من مقاومتهم البطولية نظرا لكثرة أعدائهم المهاجمين .

لأجل هذا، لم يلاحقوا أعدائهم، بل استغلوا الوضع للاجتماع وعد رجالهم الناجين والاستعداد لرد هجوم قوة جديدة محتملة.

ولما أخذوا كل هذه الاحتمالات بعين الاعتبار ،رأوا أن من الحكمة أن يختفوا عند حلول الظلام في لغابة الكثيفة التي كانت قريبة من محلهم.

وكان يقوم حارس يقظ على محل تعسكرهم ، بينما لاتجور ويوكو فال وبالا سخن يغطون في نوم عميق.

ولما استيقظ لاتجور ،وزع فرقته إلى وحـــدات ، ووضـــع كـــل وحدة في موقع ملائم ثم وزع الأدوار بين رجالـــه البـــارزين ،وكلـــف أربع مجموعات بالقيام بمهمات استطلاعية في الجهات الأربعـــة مـــع تحديد محيط لا يجاوز خمسة وعشرين كيلومتر لكل مجموعـــة ، ولـــم تأت هذه العمليات بخبر ولا تلك التي تلتها طيلة النهار، ثم وصلهم فـــي آخر النهار خبر مفاده أن بوربا جولف قد واصل مسيرته نحو عاصمة مملكته وهو يتلف الأقوات في الأهراء الموجودة فـــي ممـــره ويـــسوق الأغنام ، ويسد الآبار ، كما أمر بقتل جميع الأسر المسلما المنعـــزلين دون شفقة أو رحمة وبمحاصرة التجمعات الإســـلامية الكـــبـــرة الـــذين وضعوا تحت رقابة شديدة بحيث أن أدنى كلمة أو إشارة مبوم تعـــرض صاحيها لإدانة قاسية وأقيم جهاز تعذيبي لإجهاض أيـــة محاولـــة مـــن هؤلاء لاتصال بإخوانهم لمسلمين .

وتلقت السرية أخبارا كثيرة تفيد بان " بوربا" سيرجع لا محالـــة، لأن أهل جولف لم يتذكروا قط أنه تقهقر أمام عدو إلا ريثما يعد عدتـــه للرجوع كرة أخرى.

وفي منتصف الليل أمر لاتجور برفع العسكر لتغيير الطريق مـــع السهر على مراقبة الأقوات والمؤن.

وتخذوا الطريق المحاذية لحدود "كـــايور" لكـــي يتمكنـــوا مـــن الاستعانة بالسكان الأصدقاء في حالة ما لو تعرضوا لهجوم جديد.

وفي هذه اللحظة ، وصلهم خبر من أحد مستطلعيهم يفيـــد بـــأن هنالك جيشا كبيرا من ألوف مؤلفة، يتقدم من الجنـــوب ، نحـــو موقـــع المسلمين وأطفئوا نيرانهم لهذا الخبر، بينما الجيش المخبر عنـــه يتقـــدم إليهم.

وبعد حوالي عشرين دقيقة من هذا الترقـــب الـــصعب الـــضاغط على الأعصاب، وصلهم خبر من طليعة الجيش القـــادم يخبـــرهم بـــأن الألمام "مابا" بنفسه هو الذي يـــأتي لنجـــدتهم ولحظتئـــذ بـــدأ الجنـــود يخرجون مع مواقعهم ويطلقون صيحات الفرح وهم يهرولـــون نحـــو

شيخهم وهم يتصافحون ويتعانقون في جو من السرور لا يمكن وصفه.

واقترب "مابا" من لاتجور" وألقى عليه التحية قائلا: السلام عليك يا دميل ، كنا محزونين من الأخبار التي وصلتنا عنكم ما ذا كان مصير مهاجميكم؟

هل طردتموهم بهذه الفئة القليلة؟ مما يعني أني انتقلت للاشيء!

وأجابه " لاتجور" قائلا: لا يا أيها الألمام العظيم ، بل يمكن القول بأنا تغلبنا عليهم بصفة مؤقتة ، وذلك أنه لما خيل إلى " بوربا "باكاتام خاري جيلوار" بأن جيشه أخذ يضعف عن مواجهتنا ، أرته حكمته العسكرية أن يأمرهم بالانسحاب من المعركة ، ولكن كل العلامات تدل على أنهم سيرجعون بعد استعادة قواهم للانتقام منا فلنذهب إلى المعسكر حتى أوضح لك كل هذا.

واستعاد الألمام الكلام قائلا: قد تعودت أن أقول لك بأن الذي ينصر دين الله حقا ينقل دائما من نصر إلى آخر ، ولكن هذه المفخرة العظيمة التي حققتموها اليوم فاقت بكثير تفاؤلي هذا! حقا، فإن أبطال "كايور" لا يوجد لهم مثيل ، تعال الآن لتعطيني تفاصيل الحكاية ، وجلس لاتجور " أمام مابا" مشتبكا الرجلين على طريقة الرهبان البوذيين — وحوله "بوكو فال" و" بالاسخن" ثم بدأ في سرد تفاصيل الجولة الطويلة التي نادته من ريب " ثم إلى أطراف " فيرلو" قبل أن يختتمها بهذه الكلمات : قد أحدث "بوربا" خرابا كبيرا في ممره، مخلفا وراءه البؤس والشقاء، وحسب المعلومات التي وصلتنا ، فإنه قد أتلف جميع الأهراء الموجودة في طريقه وسد الآبار وساق معه المواشي والأغنام، تاركا مئات الأسر في فقر مدقع ، وهو يعد حاليا هجمة انتقام علينا ، يجمع لها عشرين من ألوى وأجلد شباب كل قرية مع إخضاع السكان المسلمين في مملكته لحالة خوف شديد ، لا شك أن هذا الوضع يفرض علينا استعمال القوة ضده أكثر من أي وقت مضى لأجل هذا أطلب من حضرتكم أن تسمحوا للجنود بالاستراحة حتى يتمكنوا من استعادة لطريق بعد صلاة الصبح والوظيفة مباشرة.

لندهم بهذه القوة الجديدة "بوربا" لأنه لا يتوقع أبدا رجوعنا في هذا الوقت ، وخاصة بعد تلك الاحتياطات التي أخذها وهو ينسحب ، وابتسم "مابا" قائلا له: إذن ليلة سعيدة تغتنمها أنت أيضا للاستراحة لأنك من أشد الناس حاجة إليها ، حفظكم الله جميعا ورعاكم.

ولمن لاتجور على هذا الدعاء قبل أن يقول بدوره : وليلة سعيدة لك أيضا يا أيها الألمام ، وأشكرك على مجيئك السريع إلينا في هذا الوقت.

وعندما بدأ الضوء الأول للصبح ينتشر في الأفق تلقى الجيش الإسلامي الأوامر وواصلوا طريقهم في نسق رائع نحو الشمال ، وبعد ساعات من المشي فاجأوا " بوربا" في تيورانكين" وتغلبوا عليه حتى هرب إلى كينتيرا روجده الجيش الإسلامي هنالك أيضا وأنزلوا عليه هزيمة أقسى ،وتعرض جنوده أيضا وأنزلوا عليه هزيمة أقسى وتعرض جنوده المحيطون به – بانتظام وقسوة – لضربات قاتلة ، ولما كانوا على وشك الاستسلام أمرهم "باكنتام" بالهرب مرة أخرى ، في اضطراب شديد لا يمكن وصفه في وسط ملاحقة اختزى فيها كثيرون من أهل " جولف" وترصد الناحون منهم المسلمين في قرية " امبايين" للهجوم عليهم ، لكن كانت هذه المحاولة أيضا خائبة ، وخارت قواهم عند الهجمة الأولى لجيش "مابا" وتحول الأمر إلى مبارزة فردية كانت لصالح المسلمين وفي نهايتها اضطر "بوربا" أن يقدم حرسه الشخصي في المعركة وأظهر هؤلاء بطولة خارقة تحت دافع معاني الشرف والنخوة التي اشتهروا بها، لكنهم كانوا أن يهلكوا جميعا تحت ضربات جيش ذي انتصارات متتابعة وتجارب ميدانية قد أكسبته قدرات تكتيكية وحماسة هجومية خارقتين ، وفي النهاية لاذ " باكانتام خاري جيلور" بالفرار إلى " والو" لطلب اللجوء والعون معا لما لاح له أنه لا يمكن الحيلول – دون غزو "جولفا في الوقت الحالي.

وعندما توقفت جميع محاولات المقاومة ، دخل مابا" إلى قلب " جولف " وخصه المسلمون باستقبال شعبي عرمرم ،ولما احتل عاصمة جولف " وارخوخ" غير سمها إلى المدينة ، تذكيرا للمدينة المنورة.

فزع الفرنسيين وحلفائهم من الوضع الجديد

ولما وصل خبر هرب "بوربا" إلى سين لويس أحدث فيهما أثرا مدويا ، لأنه كان يشكل تعديلا عميقا للوضع الاقتصادي والسياسي للسنغال في جميع المجالات بشكل كان يهدد العروش الوثنية والوجود الاستعماري في المنطقة السينغامبية بنتائج خطيرة.

وكان مما يزيد على خطورة الوضع على هؤلاء، قيام شيخ مجاهد اسمه " اندل بوكر " في فوتا تورو المتاخم لجلف- بتنظيم أهل بوسيبابي وطرد التجار لفرنسيين من سالدي ،ودمر داود يل" جميع القوارب المسطحة التي كانت راسية هنلك تم هاجم على رجال المقدام، مارتين ديباليرـ ولو تمكن "مابا" من الاتصال برجل كهذا فإنه يمكن أن يحقق قيام كونفدرالية إسلامية ممتدة من الضفة اليمنى لنهر غامبيا إلى الضفة اليسرى لنهر السنغال.

وكانت حالة عدم الاستقرار في" كايور" بعد إلحاقه بالقوات الاستعمارية وتدهور الأمور الداخلية لبول ، عاملان زيدان من خطورة مجاورة "مابا" ولاتجور" للولايات الشرقية ، من هذه الممالك.

كما كان الناس يخافون أن يقوم الأقليات الإسلامية الموجودة داخل هذه المماليك بإشعال نار ثورة ستدخل لها الفرق الإسلامية الجاثمة على هذه الأراضي للحفاظ على أمن المسلمين مما كان سيضعف إمكانية القيام لأية حركة تقوم بقصد مقاومة هجوم إسلامي في نطاق واسع.

بالإضافة إلى أن لأعمال الزراعة والتجارة الاستعمارية كانتا ستتعرضان لخسائر بالغة بأمر كهذا.

وينضاف إلى هذه اللوحة أن " سين" – القلعة الحصينة ضد الإسلام – كان سيجد نفسا في حالة الهجوم مضطرا لأن يحارب في جبهتين مما يبدد قواه بطريقة منطقية .

هذا الوضع هو الذي جعل بورسين كومبا اندوفين الأول يخبر الفرنسيين بمخاوفه مطالبا منهم إرسال عون من الرجال والعتاد في مدة لا تتجاوز عشرة أيام ؛ وإلا فإنه سيفضل مواجهة الموت عزيزا بدل أن ينتظر مجيء "مابا" إلى عاصمة مملكته لقطع رأسه.

وكنت قسوة الطقس بالإضافة إلى حلول فصل أمطر مفاجئ تزيد من بؤس الفرنسيين لأن هذين العاملين كانا يجعلان من المستحيل قيام أي تدخل لقواتهم وخاصة المدفعية في الوقت الحالي.

وكن هامش المناورات ضيقا جدا أمام الحاكم الاستعماري بيني "لابراد" ولم يكن يبقى أمامه إلا أن ينتظر تطور الموقف والسعي للحد من الخسائر فيما لو اتضحت نوايا "مابا" التي يتوجسون منها خيفة ، ومن أجل توفير الوقت ودبع "مابا" إلى كشف نواياه قام هذا الحاكم الاستعماري بإملاء رسالة أخرى على بو لمقداد فهذه فحواها : " أبلغت أنك غزوت "جولف" الأمر الذي فاجأني كثيرا لأن المعاهدة التي وقعت عليها في ديسمبر الماضي كانت تلزمك على احترام حقوق نظرائك ، فلماذا لم تحترم التزامك؟

وأتاه جواب حاد وشديد اللهجة كالتالي:

سكان جولف يسترقون رجالا أحرارا ويبيعونهم وينتزعون منهم خيولهم ودوابهم لاستعمالها في الإغارة على سالم كما " يقتلون ويسترقون جميع المسلمين الذين يريدون أن يأتوا ليعيشوا في كنفي ، وقد أرسلت إلى "بور جوف" مبعوثين ثلاثة دون أن يكف عن هذه الأعمال الشنيعة ، لأجل هذا أتيت إلى بلده وغزوته.

ومن جهة أخرى أخبرك بأنه لا يعنيك في شيء ما يحدث في " جولف" ولا " سين " ولا "باول" وإذا كنت سيد هذه البلاد ، فامنع الكفار الذين يسكنونها من إيقاع الأضرار على المسلمين.

ومن الآن فصاعدا ، لا ترسل إلي أية رسالة في شأن الكفار ، ولا تتدخل مرة أخرى في هذه القضية وإذا كنت تبالغ في تقدير قوة جيشك ، فاعلم أن جيش الله أقوى من جيشك.

بهذا اتضح لهم بأن الألمام لا يقبل أدني تساهل معهم وأنه قرر الآن أن يرد بالقوة على جميع الاعتداءات التي يوقعها جماعات تيدو على المسلمين.

أما السلطة وحق الوصاية التي يدعيها الفرنسيون لأنفسهم فقد أنكرها كليا معلنا أنه لا يعترف إلا بسلطة الله وقانون القرآن.

وكانت الأمور واضحة للحاكم الفرنسي بأن القطيعة بينهما أصبحت أمرا غير منكوك فيه لكنه بوصفه محنكا ، لم يتسرع في جسم الأمور لأجل هذا لما طلب قائد "غوري" إرسال قوات إلى " سين" و" باول" بالتماس من ملكيهما- للمشاركة في شن حرب على المسلمين ، لم يعطه الحاكم الاستعماري الإذن لذلك معللا بأن الوقت غير مناسب لأن يذهب هؤلاء لمهاجمة "مابا" خارج بلادهم ، ورأى بأنه يجب عليهم أن يبنوا قواتهم على حالة تعبئة جيدة لرد هجوم "مابا" لو حول غزو بلادهم وأن يساعدوا الولايات المواجهة لـ" كايور" في حالة ما لو كانت مهددة.

والبلد الوحيد الذي كان يبدو للفرنسيين بأنه يجب عليهم أن لا يدخروا جهدا في سبيل الحفاظ على كل حدوده مهما كان الثمن – هو كايور، " أما سين" و"باول" فلم يكن يهمهم أن يتعرضا لغزو داميل إلا قليلا ؛ بل كان همهم الرئيسي يتمثل في إنقاذ مملكة كاجور من السيطرة الإسلامية برجوع لاتجور على عرشه رجوعا ظافرا مما كان سيهدد جميع الجهود التي بذلوها لاحتلال هذا البلد وفرض سيطرته عليه بالتلاشي والذهاب سدى.

ويجدر بالتذكير هنا أن "بيني لابراد" الذي كان حاكما للسنغال في هذا الوقت ، لم يكن قد اكتسب رتبة " كولونيل " إلا مكافأة له على العمل الذي قام به في "كايور"بعد معركة "لورو" التي أبيد فيها صفوة

فرسان "كايور" مما ألجأ لاتجور " إلى اختيار طريق المنفى ، ثم كـان هناك خصاما شخصيا بين الضابط الفرنسي وهذا لداميل.

سانت لويس تستعد لشن حرب ضارية على مابا

وفي صباح أحد الأيام جاء خبر يخبر بأن (مابا) و(لا تجور) قد استوليا على كوكي وأنهما يمشيان نحو(نيومري) وأحدث هذا الخبـر انفعالا كبيرا في سانت لويس .

وقام الفرنسيون بتعبئة جميع قواتهم والاستنجاد بحلفائهم في سين وباول من أجل شن حرب صليبية ضد الإسلام في السنغال .

وكان كوكي العاصمة الدينية لـــ _ انجامبور _ منذ أن قام فيهـا مختار اندومبي جوب مدرسة إسلامية قدا كتسب مـــع مـــرور الأيـــام شهرة واسعة ، قبل أن تجد فروعا لها في(لوغا) و(انكيك) و(اندام) و (كاييب) و (اندارا كوري) وكان يوجد على رأس كل مدرسة مـن هذه المدارس شيخا تنسب إليه فكان في كوكي شـيخ (كـوكي) وفـي لوغا (شيخ لوغا) وهكذا .

ويدل هذا على تقدم سريع للدعوة الإسلامية وكون الإسلام ممكنا لها في المنطقة على الرغم من الاعتداءات التي بنزلها جماعات(تيدو) وكان بإمكان مجيء مابا إلى هذه المنطقة بصعبة لاتجور مـسلما ، أن يشكل عامل تجير للاستياء الطويل الذي كان يعيش فيه المسلمون عما كان قابلا لتوليد حرب لا يمكن التكهن بنتائجها.

لأجل هذا أخذ في سانلو مأخذ الجد الخطر الذي كان تبتدى فـي الأفق بيد أن الحقيقة هي أن الإمام لم يكن تحريض قيام الثورة علـى الأقل في الوقت الحالي، كما كان يظن الفرنسيون وكـان دخولـه فـي الجزء الشرقي من هذا البلد يدخل في نطاق الحرب النفسية التي كـان مغرما بها ، مثل دخوله في إقلـيم (طـوبى) و (امبـاكي) والجـزء الشرقي لـــ (سين) .

وكان يهدف من جهة أخرى إلــى تــأمين الأقليــات الإســلامية الموجودة في هذه الأراضي وتشجيعهم على المقاومة وتجربة قدراتهم القتالية في التصدي للهجمات المحتملة من الإمارات المحلية.

وأن يرى جماعات (تيدو) الميـلين إلــى الاعتــداءات علــى المسلمين ، بأن تحالفهم مع الفرنسيين بعيد كل البعد أن يجعلهــم فــي منجاة من ضرباته الموجعة، وأن يبرهن للحــاكم الاســتعماري بــأن يرفض تماما الحدود التي كان يسعى لفرضها على جهاده. ولما بــدأت هذه المظاهرة غير مثمرة جدا بالنسبة له استعاد طريقة نحــو (ســالم) مستجلبا معه خمسين أسرة مسلمة منهم (مختار بيندا سي) الذي كــان من أعمام الحاج مالك سي مؤسس زاوية تيواون فيما بعــد ، وكــذلك (مام مور أنت سالي) بصحبة ابنه (أحمد بمب) .

واستقر الأول في (كومبوف) والثاني فــي (برخــان) حيــث دفنت مام جارية الله بوصو أم مؤسس الطريقة المريدية .

وكان جميع هؤلاء يقومون بمهمة لقضاء مــع الحــاج عبــد الله انياس في مملكة ريب الإسلامية . وكانت سرية (لاتجور) و(مابــا) إلى جولوف والهزائم التي ألحقوها بأعدائهم الواقفين لهم بالمرصاد فــي كل من (سين) أو (باوول) أو (جولوف) ورجوعهم دون إعاقــة إلى سالوم ، تشكل عوامل قد قدمت براهين أكيدة تــدل علــى أن قــوة المسلمين قد بلغت حدا لا يمكن الاستهانة بها وأن ألمام (ريــب) قــد بلغ أوج قوته . وأصبح أخطر مما كان في أو أي وقت مضى بالنــسبة لمجلس سانلوي والحــاكم الفرنــسي وان تــصفيته أصــبحت أيــضا ضرورية أكثر من وقت مضى وانه لا بد من الانتهاه من شأنه ، لأنه لا يمكن لأحد أن يتكهن بعواقب صعود قوته المتزايد مع مرور الأيام.

وتمت الموافقة على بدء العمل لتحقيق هذا الغرض فــي الحــال لأن فصل نزول الأمطار الذي كان يعيق الفرنسيين قــد انتهــى الآن. وعلى الرغم من الجواب الواضح الذي كان (مابا) قــد أرســله إلــى الحاكم الفرنسي في شهر اغسطس 1865 م فإن هذا الأخير قــد رفــع حجة مخالفة (مابا) لمعاهدة 1864 م طالبا منه احترام التزامات هــذه

المعاهدة ولم يكتف بهذا ، بل ذهب إلى حد طلب ضمان يدل على حسن النيا ، وذلك بإيقاف حالات الاعتداء على المماليك الوثنية الصديقة لـ(فرنسا) وطرد لا تجور وجماعاته من سالم. ولما وصلت هذه الرسالة الواضحة إلى مابا لم يتمالك نفسا – على الرغم من وقاره الطبيعي – من أن يصبح قائلا : وهل أصبح هذا الخبيث يظن نفسه سيدا مسيطرا على هذه البلاد ، حتى يتكلم بهذه اللهجة من هو؟ وباسم أي شيء يرى لنفسه حقوقا ومستحقات يطالب بها .

قل لسيدك : إذا كانت الأسرة الوثنية الحاكمة قد عودته الرضوخ لإرادته ونزواته فإن مابا ليس من طين هؤلاء. وقل له بان هذه البلاد قد اشتهرت بالحفاظ على شرفها وكرامتها وإنا قد ورثنا ذلك جدا عن كابر وأنا سنذافع عن هذه البلاد وشهرتها مهما كلفنا ذلك.

وقل له أيضا : بأن جهادي ضد أعداء الدين لا يعرف حدا ولا هدنة، وإذا تمكنت من ذلك سآتي إلى سانت لويس أما لا تجسر فإن هذه الأرض أرضه لأننا هنا في (ريب) ما زلنا نحافظ على قيم حسن الضيافة ولن نتخلى عنه أو نخذله بسبب (تباب)[1] كيده في تباب .

ولم يكن بيني لا براد يطلب في حقيقة الأمر إلا ذريعة ينفذ منها للقيام بالعمل الذي صمم عليه مسبقا. وكانت هذه الحجج كافية وخاصة لما بلغته أخبارا تفيده أن شيخ (ريب) يعد حلفاء يزدادون كثرة في المماليك الموجودة تحت الحماية الفرنسية أو تلك التي تم إلحاقها بالفعل وأنه أوفد مبعوثين إلى الدولة الاسلامية بـ (بندو) وإلى الحسانيين في (ترارزا) وحتى إلى ملك المغرب يحاول أن يقنعهم بأن يشتركوا معه في شن حرب حاسمة ضد جماعات تييدو والفرنسيين بهدف تمكين الناس من حرية اعتناق دين الله والدخول فيه أفواجا .

كما كان قد كتب إلى لامتورا حينما احتل(جولوف) ليذكر بأن أصله من (كيهدي) وأنه ينتسب إلى أسرة (كولي تنيكلا) قبل أن يضيف قئلا : أكتب إليك هذه الرسالة لأطلب منك الاستجابة لدعوة الله ولأطلب من سكان فوتا الذين عندهم بعض الأشياء (الأسلحة) أن

---

[1]) تباب، تسمية لمزة تطلق على الأوربيين (المعرب)

يبيعونها في سبيل نصرة الدين، ولينصرن الله من ينصره ومن كان عنده شيء نافع لحمل لسلاح من خيل أو حمار أو جمل فما عليه إلا أن يقدمه في سبيل نصرة الدين، فبفضل الله ثم بفضل أدعيتكم وأدعية المسلمين تمكنت من غزو (جولف) فأنا الآن أعد العدة لمحاربة جماعات (تييدو) والفرنسيين، ولما بث (لامتورا) هذا المطلب في شعبه، بدأت الطلائع الأولى من المتطوعين يأتون من فوتا تورو ومعهم الأسلحة والمؤن في جماعات متفرقة ، وكان جواسيس الحاكم الفرنسي قد عدوا عشرات من تلك الجماعات ، واستمرت الحركة تتضخم مع مرور الأيام إلى أن كلف الحاكم الاستعماري وحداته الاستكشافية بالهجوم على جميع الفرسان سواء كانوا منفردين أو في جماعات إذا كانوا متجهين نحو سالم.

ولما وجد أن هذا الأسلوب، لم يوقف المد المتزايد من المجاهدين، قرر أن يقوم هو شخصيا بشن حرب داخل (ريسب) من أجل ضرب المسلمين في قوتهم الحيوية.

وتشكل له جيش قوامه أكثر من ثمانية آلاف مقاتل في الأشهر الأولى من فصل الصيف ، يساندهم أسطول حرب ذوا وحدات متعددة بـ (الإضافة) إلى مدفعية هائلة في مركز "كولخ".

وأعلن الحاكم الاستعماري في عددي 504 و505 من مونيتور السنغال الصادرين في نوفمبر 1865 بيانا طويلا لسكان المنطقة السينغامبية، عن دوافع هذه التعبئة التي لم ير لها مثيل في حوليات الاستعمار بالسنغال.

وبعد وصف مابا بأوصاف قبيحة ادعى الحاكم الفرنسي بأنه لا يسعى إلا للحفاظ على مصالح الشعب قبل أن ينهي البيان قائلا:" فقد غزا سالم وسلمه لجواب آفاق مغامرين وخرب جولف بعد تهديم وعود براقة لسكانه، وكان يريد أن يحقق نفس الشيء في " سين" و"باول" و"كايور" كما كان يريد اختراق "فوتا" والآن فإن الحكومة الفرنسية قد قررت وضع حد نهائي لتصرفات هذا المغامر ، وذلك بهدف الحفاظ

على مصالح الشعب وسيدمر" ريب" جميع البلدان التي تقدم العون لأولئك الذين ينتهجون نهج "مابا".

وترجم هذا البلاغ إلى اللغة العربية ونشر في جميع الممالك على أوسع نطاق.

وقام عملاء فرنسا بقراءته وشرحه في الاجتماعات العامة بهدف تثبيط الموالين المعروفين أو المجهولين لمابا من الانضمام إلى صفه.

وكان الحاكم الفرنسي يدرك تماما بأن هذه الحرب ستعرضه لأخطار جسيمة لوقوعها بعيدة عن قواعد قواته التي يمكن الالتجاء إليها بسرعة لو تعرض لخطر، أما "مابا" فقد تلقى خبر ترتيبات هذا الهجوم الفرنسي بهدوء، وظل ينتظر تطور الأحداث بعد أن وضع رجالاته في النقاط الإستراتيجية وأرسل جواسيسه إلى "كولخ".

وكانت الفرقة الفرنسية مكونة من مساعدين اكتتبوا من " سانت لويس" و"كانجول" و"والو" و"انجامبر" و"كايو" و"باول" في أساسها.

ولما اجتازوا " سالم" دخلوا "ماكاكاهوون" حيث كانوا يظنون أنهم سيجدون الألمام "مابا" ولكن هذا الأخير كان قد غادر هو جماعته هذه المدينة لما بلغه الأخبار، لأنه كان يرى بأن قيامه بمعركة حاسمة بعيدة عن" ريب" يشكل بالنسبة له مجازفة كبيرة ، ومن جهة أخرى فإنه كان يهدف أيضا إلى ترك العدو يتغلغل داخل "سالم" حتى يمكن قطعه عن مركز قواته في كولخ عند الاقتضاء.

وهاجم الفرنسيون على المدينة كسراب من الجراد ودمروها تدميرا وأحرقوا الأهراء والمنازل الموجودة فيها.

يحكي الرقيب/ دينيسار قصة هذه الحرب فيقول :" هنالك دمرت القوات الفرنسية ثلاثين قرية قبل أن تواصل سيرها نحو "نيور" ومشى الجيش الفرنسي مدة عشرين ساعة دون أن يتمكنوا من العثور على أي أثر للمسلمين ، واستمروا متوغلين في عمق"سالم" مارين أولا في" كوتال" ثم "تيكيت" ثم في "اندوفان" دون جدوى ، على الرغم من استجواب الفلاحين وإرسال وحدات استطلاعية لمسافة عشر كيلومترات.

وعلى قدر ما كان الجيش الفرنسي يبتعد نحو الجنوب كانوا يجدون أنفسهم أمام نباتات وجنبات أكثر كثافة وأطول حتى أصبح السير نحو الأمام أمرا صعبا عليهم حيث لا يجدون أمامهم إلا دروبا ومروجا ، يضل الجدري[1] في جنباتها المتعرجة والضيقة واضطروا إلى سلوكها على الرغم من الحرارة المنهكة مقرونة بفقد الماء ،وعندما توصلوا إلى" انجاباخ" توقفوا لإراحة الدواب وإعطاء فترة استجمام للجنود قبل الوصول إلى " نيورو" التي لم تعد بعيدة.

وفور نزولهم على هذه المحلة ، توزع الجنود في الشوارع والمنازل ووقع بعضهم في نوم عميق على الرغم من التحذيرات التي تلقوها.

وأثناء هذا الوقت كان " مابا" قد جمع قيادته العسكرية ليعرض عليهم معطيات الوضع وليستشيرهم حول الخطط التي يتعين اتخاذها.

وضم هذا الاجتماع كلا من: " مامر انداري" عبد الله با " ابدوبا" " بيران سيس" أمت خجا كومبا" كي ، لاتجور، ديمبا وار سل" يوكو فال" ميسا امبي " وافتتح الألمام قائلا: أيها الإخوة في الله : اعلموا أنه قد وصل بفضل الله اليوم الذي كنا ننتظره بفارغ صبر، إذ بلغني أن الحاكم الفرنسي نفسه قام على رأس فرقة عسكرية بهدف تدمير " ريب" ومحو الإسلام في أرض أجدادنا ، وقد غادر هذا الخبيث منذ يومين كولخ في ثمانية آلاف جندي ينشرون الفساد والخراب والموت ،في ممراتهم ويدمرون القرى ويحرقون الأهراء ويغتصبون النساء.

ولقد كان بإمكاننا أن نوقف زحفهم ، لكنا تركناهم لأننا نريد أن نتركهم يتوغلون في عمق " ريب" حتى نحاربهم في ميدان لا يعرفونه، وحتى نقطع اتصالهم بكولخ القاعدة الوحيدة التي يمكنهم طلب العون منها.

[1]) عصفور يضرب به العرب المثل في الاهتداء بالدروب والمسالك الخفية (المعرب)

وحسب آخر الأخبار التي زودني بها جاسوس الإسلام بوبكر كاني فإنهم الآن في "انكاباخ" حيث يستطيعون المشي إلى " نيور" للوصول إليها بعد يوم.

والآن أطلب منكم إبداء أحسن الخطط لكسب المعركة، ورفع "لاتجور" يده قائلا: أيها الألمام المتميز وبطل الدين العظيم ، أريد منك أن تسمع ما أقوله لك جيدا : أنا أعرف الفرنسيين معرفة جيدة بعد أن حاربتهم في "انغول انغول" و"ميغي " و"لوكا" و"لورو" وأعرف بأن فرساننا أحسن من فرسانهم ومشاتنا أكثر تمرسا بفنون القتال من مشاتهم ، أما شجاعتنا فلا تقارن بشجاعتهم وقوتهم الوحيدة في مدفعيتهم التي ترشق بالنيران وتبدد الفرسان وتخلخل صفوف أعدائهم إذا تمكنا مع تعطيل المدفعية عن العمل ، فسنكبدهم خسائر وننزل عليهم هزيمة سيتغنى بها القوالون إلى آخر الدهر.

للوصول إلى هذا، أقترح الخطة التالية : بما أن الفرنسيين وحلفائهم قد تجولوا منذ يومين في المنطقة لاكتشافها ووضع خططهم على أساس ذلك ، فأنا أرى أن يقسم جيشنا إلى وحدتين الوحدة الأولى تبقي للدفاع عن " نيورو" بينما الوحدة الأخرى تمشي على الفرنسيين مساء هذا اليوم لأنهم سيجتازون غابة " باوسكوتو" الآن بين "نيورو" و"انكاباخ" فنسبقهم هنالك.

وبما أن النباتات كثيفة جدا، فإنهم لا محالة سيمرون في الوادي الممتد من" انكاباخ" إلى باووسكوتو" وبما أن المسافة طويلة جدا والحرارة شديدة فسيضطرون إلى النزول في المستنقعات العذبة الموجودة في الطريق للشرب، فلنسبقهم إلى هنالك وننشر قواتنا في الدروب والمروج منتظرين غفلتهم عن سلاح المدفعية حتى نطلق النيران عليهم وحتى نحيط بهم من جميع الجهات في هذا المكان الضيق، لنمنعهم من تشغيل مدافعهم.

وكان"مابا" يتابع استماعه إلى " لاتجور" وهو يحرك رأسه على نحو يدل على الرضا والاستحسان .

ولما استشار بقية الوجهاء اتفقوا جميعا على اعتماد هذه الخطـة، وبعد ذلك أخذ "مابا" بيد" لاتجور" وضمه إلى صدره قبـل أن يناجيـه بهذه الكلمات : يبدو كأن بيني لابراد نفسه هو الذي يقود الجيش وقـال له لاتجور قد حان وقت تصفية حساباتي مع هذا الرجـل لأجـل هـذا أطلب منك أن تتفضل علي بتكريم واحد هو ألا يمس الحاكم الفرنـسي أحد غيري حتى أواجهه وحدي .

وأجابه "مابا" حفظنا الله جميعا ،وأمن على هذا الـدعاء أصـحابه الذين كانوا يتابعون هذه المناجاة بين الرجلين.

ثم أمر بالاستنفار وكان ذلك بتـاريخ 30 نـوفمبر1865 م وقـد جرت الأحداث في البداية حسب المتوقع، وكان تنكر المـسلمين علـى تمامه بحيث أن الفرنسيين سلكوا الدروب دون أن يحسبوا لهـم أدنـى حساب.

وكان يجر المدفعية بغال ، ولما تهيأ الفرنـسيون للـدخول فـي الوادي، شاهد أحدهم – كان قد غادر الطريق لأمـر يهمـه – جنـودا معممين ونبه أصحابه في الحال.

وعندئذ أطلق " لاتجور" صيحة خشنة لإعطـاء الإذن بـالهجوم وتلاها مباشرة أزيز الأسلحة وارتمى المسلمون في درب المسيل.

ولما شعرت مؤخرة الجيش بالخطر المحدق ، رجعوا إلى الوراء والبغال تتبعهم ونسوا التقاط بعض أكداس الـسلاح التـي كانـت قـد وضعت على الأرض أثناء هذا التقهقر ولاحقهم المسلمون لمئات مـن الأمتار من أجل إبعادهم عن ساحة العمليات ، والتقطوا قطعتـين مـن سلاح المدفعية خلفها الهاربون وراء ظهورهم ، وابتدأت المعركة فـي عنف وضراوة وتبادل الجيشان الضربات لعدة ساعات ،خلفت ركامـا من الجثث والقتلى .

وكتب "دينيسار" عن ضحايا الفرنسيين قـائلا:" جـرح كـابتين "كابانار" في الذراع ومات كل من كروازي من مشاة البحرية والطبيـب الخراج / موستى شاربونيي وجرح ديلبس في أربعـة مواضـع مـن جسده وأصيب بيني لابراد نفسه في منكبيه ، كمـا أصـيب كـابتين

"باركون" والملازم الثاني الأهلي "كولي سوليبا " في الوقت الذي كانا يشغلان فيه المدفعية التي فقدت إحدى قطعها.

وتزلزلت مواقف السرية الفرنسية بسبب مباغتة المسلمين وشدة هجومهم، ولكن تدخل ارماة المتميز هو الذي كاد أن يعيد الأمور إلى نصابها في صفوفهم، ومكن الحاكم الاستعماري من استعادة السيطرة على رجاله وتنظيمهم من جديد وفق خطة مدروسة للرد على هجمات المسلمين .

وصمم كل من الجيشين على استئصال شأفة الآخر وتعقبت ضربات البنادق مبارزات فردية ثم مواجهات بالأسلحة البيضاء في جو رهيب من انفعالات الحقد والكراهية إلى حد المبارزة باللكمات والمصارعة عند فقدان الأسلحة.

فمثلا لما صرع بركو قال أحد الضباط الفرنسيين دون أن يجد سلاحا للإجهاز عليه ، عض على إليتيه بقسوة بالغة شفاء لما في صدره من الغيظ.

ولم يتمكن "لاتجور" من الاقتراب من بيني لابراد على الرغم من المساعي ،والجهود التي كان يبذلها لقتله بيده ، وذلك لأنه كان مستهدفا منذ البداية من طرف محاربين تلقوا الأوامر بقتله بكل الوسائل الممكنة ولم ينج من ذلك إلا بفضل دفاع فرسان كايور المستميت عن حياته .وأنهى المسلمون لمعركة وقفلوا راجعين لما رأوا أن الفرنسيين بدأوا يتملصون من مأزق الكمين.

ولم بيني لابراد مواصلة سيره لاحتلال "نيورو" ليحقق بذلك انتصارا سياسيا كبيرا ؛ ولكنهم لما قدروا خسائرهم ، ووجدوا أنهم فقدوا قطعتين من سلاح المدفعية وكيسين من القذائف، خافوا ورأوا بأن الحكمة تقتضي إرسال بعثة استطلاعية قبل القيام بأي عمل.

وتم تشكيل هذه البعثة لكن هؤلاء لم يقوموا بهذه امهمة ،بل تاهو على وجوههم بضع ساعات ثم رجعوا من حيث ذهبوا مدعين أنهم كانوا قد ضلوا في مفاوز الفلوات ولسبب الذي حملهم على هذا التصرف هو الرعب الذي أدخلته في قلوبهم ضرورة المسلمين.

وأعيد تشكيل البعثة نفسها في اليوم التالي، وبينما كان الفرنسيون ينامون تلك الليلة ، قام " لاتجور" الذي لم يشف غيظه منهم – ومعه جماعة من الفرسان وبدأو ينزلون عليهم وابلا من القذائف في جميع الجهات ثم هربوا قبل أن يتمكن هؤلاء من الرد عليهم ونفذوا هذا العمل ثلاث مرات بضراوة بالغة حملت لابراد على الظن بان المسلمين مازالوا محافظين على كامل قواهم وأنهم غير مستعدين للاستسلام .

وفي اليوم التالي أمر جنوده بالانسحاب على "كولخ" من أجل علاج لجرحى وإعادة انظر في الوضع وفي السحر أحرقوا قرية " دير تادي " ونهبوا قرية "باوو سكوتو" في سبيل تأمين ظهورهم دون أن يتمكنوا من تدمير "مبا" وجيشه كما كان ينوون .

وعندما وصلوا إلى" كولخ" بتاريخ 7 ديسمبر وألقى الحاكم الفرنسي على جنوده الخطاب التالي:

أيها الجنود الأبطال ، إنكم قد غادرتم ضفاف نهر السنغال ،حاملين راية "فرنسا" بكل نبل ، واجتزتم أرض "كابور" و"باول" و"سين" و"سالم" من أجل الذهاب إلى داخل "ريب" لتدمير قلعة قطاع الطرق ، وقمتم بمشي طويل ومضن في سبيل معركة "باووس المجيدة.

كان أعدائكم محتمين في أماكن إستراتيجية دافعوا عنها باستماتة ، ولكنكم أخرجتموهم منها بشجاعة عظيمة قد كلفتنا ضحايا متعددة ولكنكم تعرفون بأن المجد لا ينال إلا بهذا الثمن الباهظ ولا يمكن إراقة دماء في قضية أعظم من هذه ويا مجد أولئك الذين ماتوا في "بساووس" للدفاع عن فرنسا!!.

أيها الجنود الأبطال ، اعلموا بأن الأعمال البطولية التي قمتم بها ستبلغ إمبراطورنا المعظم ،وتعرفون إلى أي حد يكافئ التفاني والبسالة.

وهكذا انتهت هذه السرية وبقي "مابا" سيدا في "ريب" أقوى من أي وقت مضى مع لاتجور، في أرض "سالم".

وبعد أسبوعين من الوصول إلى كولخ ، أخذت السرية طريقهـا نحو سانت لويس وهم يجرون أذيال الهزيمة وخيبة الأمل.

المسلمون يدحرون سرية فرنسية أخرى

وبعد هذه الحادثة بخمسة أشهر بدأ لحديث في ريب يدور من جديد حول الفرنسيين وذلك لما قام كابتين فيليزي بالتجوال في مناطق من "سام " للبحث " عن "مابا" ثم رجع إلى سانت لويس بخفي حنين.

وبعد الخروج من معركة "باووس لوتو" شعر "مابا" بأن الوقت قد حان للتخلص من الفرنسيين نهائيا وصمم -- من الآن- فصاعدا على مهاجمة "كايور" لإحلال لاتجور على عرشه من جديد وإثارة باول" وتنظيم حملة بالتنسيق مع المسلمين في فوتو لمهاجمة "سانت لويس".

وجمع لذلك الأسلحة والعتاد والقوت مع اكتتاب فرق جهادية جديدة، وأرسل مبعوثين إلى غامبيا من أجل شراء البنادق وآخرين إلى جوول"، كما أرسل إلى جميع رؤساء الولايات والقرى لطلب المساعدة منهم ، وأعلن لمسلمي "باول" و"كايور" وجولف" باول سيجيء إليهم عما قريب طالبا منهم أن يستعدوا لمساعدته. وشكل بعد ذلك جيشين أحدهما تحت قيادته الشخصية والآخر تحت قيادة لاتجور لشن حرب نفسية على السكان.

وتوزع الجيشان في وحدات خفيفة تنشر أخبارا مفادها أن هناك هجوما وشيكا سيقوم به المسلمون وحمل هذا الأمر الفرنسيين على إرسال قوات من جيشهم في النقاط الإستراتيجية وكانت هذه الوحدات تظهر في أماكن مختلفة - بصفة متزامنة - بواسطة الضرب والتخويف ثم يهربون قبل تمكن الناس من الرد عليهم كما فعلوا في "انجانج" و"تراكين" و" انكيكس" و" كراندومبي خاري".

وأصبح ظهور "مابا" أو" لاتجور" أمرا يثير الناس كثيرا في هذه الأماكن ، وكان المسلمون يدعونهما علانية للدخول إلى قواهم

ومحلاتهم في الوقت الذي كان بعضهم يتركون - محلاتهم وزوجاتهم وأولادهم للانخراط في جيش المجاهدين.

واغتنم بيني لابراد كثيرا لهذه الأحداث ودفعه الأمر إلى إعداد حملة جديدة في" ريب" وكانت المنطقة السنيغامبية تبدو كأنها في موعد مع معركة حاسمة.

لاتجور في طريق يوصله إلى خوض حرب في" سين"

وفي هذه الظروف قاد القدر لاتجور في يوم من الأيام إلى مقربة من سين - وهو بصحبة رجاله وعبدو باه الأخ الصغير لي مابا - في إطار مهمة استطلاعية كان الهدف منها مراقبة حركات العدو وتأمين السكان الموالين للمسلمين.

ولما وصل إلى حدود "سين" توقف مترددا هل يواصل السير أولا: ثم قال في نفسه بعد هنيئة : لا شك أن هذه الدولة تشكل عقبة كبيرة لي سبيل إنجاز مشاريع شيخنا فبي ، ليست بمثابة حاجز بيننا وبين "كايور" فحسب ولكن تضيف إلى ذلك تعلقا شديدا بعادة الأوثان ، بكل هذا تشكل تحديا منصوبا في سبيل المجاهدين. أنا أرى بأن هذه المملكة المنزوية تشكل أغلوطة لا يجمل وجودها كما تشكل خطرا على أعمال "مابا".

لاشك أننا سنتعرض ل: " بورسين كومبا اندوفين" عندما يقوم المسلمون - من نيومي إلى حدود سانت لويس" لشن حملة واسعة النطاق ضد الأوربيين وحلفائهم من جماعات "تيدو"

وقال له عبدو با: صبرا لك يا لاتجور إن هذا اليوم سيأتي إن شاء الله

وقفلوا راجعين حتى مروا في قرية مهجورة للصيادين حيث لاح لهم من بعيد محاربون سينيون - مع رئيسهم - على متن سفينة متقلة تنحدر من ذراع البحر وهو يسيرون السفينة بكل قواهم وكأنهم متعجلون للغاية.

وكان رئيسهم جالسا على مقدمة السفينة وبجانبه شاب قوي يمسك في يده اليمنى زجاجة خمر يتحساها شيئا شيئا.

وأمر لاتجور جماعته بالنزول على الأرض والاختفاء خلف الجنبات ، والسفينة تقترب أكثر فأكثر حتى أصبحت أحاديث ركابوا تتضح لهم على قدر ما يقتربون ، فإذاهم يقولون:

سيكون "سين" منيعا بفضل هذه الأسلحة وسنحصل غدا على كمية لازمة من البارود والعتاد وبذلك ، نكون في أمن من المسلمين في" سالم".

وهل صحيح أن الحاكم الاستعماري بعد حملة جديدة ضد "مابا"؟

نعم يفكر في ذلك ولكن لا أعرف متى وستصلكم الأخبار في الوقت المناسب.

أظن بأنه لا يقف هذه المرة في منتصف الطريق؟

لا بالتأكيد لأنه يشترك في هذه الحملة الإنكليز في باطرسة بالإضافة إلى داميل الحاكم في "كايور" وتينج الحاكم في باول وعندما يحيط هؤلاء جميعا ب"مابا" من جميع الجهات فإنه لابد أن يستسلم ويدرك في نهاية المطاف عاقبة نواياه مثل جميع المتعصبين الذين هم على شاكلته.

وتقهقه أهل "سين" ضاحكين من هذه الكلمات بينما المركب يمخر العباب نحو المرسى.

وقال مابا لأبوباه : هل سمعت يا عبد وباه؟

نعم وأنت؟

لم تفتني أية كلمة ، ولكن يجب علينا أن نسعى للحصول على مزيد من الأخبار ولماذا لا نتتبع السفينة لنعرف وجهتها.

نعم لا مانع.

وقال داميل فلنقم بذلك.

ومشت سرية " لاتجور" مختفية وراء الأعشاب والجنبات الطويلة محاذية الشاطئ في اتجاه هذه السفينة ،وبعد ساعتين من التتبع رست السفينة في جون صغير حيث كان ينتظر ثلاثة فرسان ولما بدأ

الركاب في إفراغ حمولة السفينة ،نزل أحد الفرسان للأشراف على العملية وتكدست على الشاطئ بنادق جديدة وأكياس من الخمر.

وعندما شاهد "لاتجور" كل هذا بأم عينيه لم يستطع أن يمسك نفسه وأعطى الإذن بالهجوم على أهل "سين"

وانقسم رجاله إلى ثلاثة فرق ليحيطوا بهؤلاء من جميع الجهات حتى لا يجدوا منفذا للتخلص ، ولما أدرك أهل سين بالخطر المحدق بهم ، فزعوا وتفرقوا للهرب في حركة مضطربة وتابعهم بعض الفرسان ، بينما كان الآخرون يستولون على الحمولة المتروكة وأثناء جريان هذه الأمور هرب الفارسان اللذان لم يكونا قد نزلا من فرسيهما بسرعة نحو الشرق.

وعند ما رجع لاتجور إلى الشاطئ جمع غالب رجاله وانطلق معهم لملاحقة الهاربين وانطلق مالاو كالسهم على أثره الفرسان من أهل "كايور" وبعض فرسان "سالم"

ودامت الملاحقات ساعات إلى أن انتهت خاتمتها إلى غابة كثيفة داخل قرية "كرانكور" حيث كان بور سين يرأس حفلة مأتم محاطا بحرسه الشخصي المشهورين بالشجاعة والبسالة.

ونزل الفارسان الهاربان وانبطحا أمام "بور سين" ليخبراه بأن المسلمين هم الذين يلاحقونهما.

ولم يكد الملك يوضح لضباطه ما حدث حتى بدأ الرجال المعممون يتقاطرون عليهم من كل الجهات واصطف الحرس الملكي في الحال لمقاومة المهاجمين في جبهة متماسكة وعازمة على المقاتلة .

وقامت بين المسلمين وأهل سين معركة عنيفة ، وأبدى كلا الطرفين بسالة عجيبة وعزما قويا على عدم التراجع تحت أية ذريعة ، وطلب كومبا اندوفين من رئيس حرسه بإلحاح من مستشاريه – أن يؤمن له ظهره ليهرب نحو جاخاو بصحبة "وولوسانو" وبوكر" انغوني" و"اندام".

وفي هذا الوقت أطلق رئيس الحرس صيحة رهيبة معطيا الإذن بهجوم انتحاري على المسلمين افتتحه هو وكان بعض الفرسان الكايوريون يريدون ملاحقة "كومبا اندوفين " لكن لم يتمكنوا من ذلك بسبب منافحة عشرات من أبطال سين عنه.

في الوقت الذي كان بعض أهل سين " يلتصقون على ألباب الخيول ويموتون تحت وطأتها كان الآخرون يمسكون بأسلحة الفرسان وملابسهم بحنق – غير مبالين بالأخطار.

ولم يحارب أهل "سين" عدوا قط بضراوة أشد مما كان في هذا اليوم وضحى جميع الحرس الملكي للملك حياتهم دون أن يهرب أي واحد منهم.

ولم يتمكن أحد من المسلمين أن يسعى لملاحقة "بورسين" طالما كان جندي من حرسه باقيا على قيد الحياة.

ولما خمدت المقاومة أعطى "لاتجور" الإذن بالمشي على"جاخاو".

وكان قد نسي اتخاذ أي حذر أثناء هذا الاندفاع سبب حنقه على "كومبا اندوفين" الذي لم يكن ليغفر لنفسه خطأ عدم اعتقاله بعد أن كان من ذلك قاب قوسين أو أدنى ، كلما تذكر ذلك اليوم الذي اقترح هذا الملك المختال ، أن يقدم له اللجوء مقابل التسري بالأميرة:ل"خورج امبوخ" قبل أن يهينه بمصادرة المدفع الذي انتزعه من الفرنسيين في معركة "انكول انكول" إذن ما دام هذا الملك المهين في مكنة يده فإنه لا يرجع عنه طواعية.

كانت هذه الأفكار تجري في رأس لاتجور وهو يحرض جواده الذي انطلق بسرعة مجنونة مادا عنقه في اتجاه بورسين، ولما بدأ بورسين يخفف من سرعة سير جواده في هملجة خفيفة بصحبة وجهائه الثلاثة ، سمع حركة متساوقة واضحة لفرسان يتخذون السبيل نحوه ، ولما التفت رأى جماعة من الفرسان تسد الأفق مثل زوبعة غاضبة وقال له اندام : واصل سيرك نحو جاخاو ، لن يصل إليك أي إنسان ما دمنا على قيد الحياة.

وبينما كان " كومبا اندوفين " يختفي في سحابة من غبار جـري فرسه ، كان الوجهاء الثلاثة يبدون استعدادهم للتضحية بحياتهم للـدفاع عن ظهر ملكهم الهارب على متون اجوادهم واجهوا الملاحقـين وهـم ممسكون ببنادقهم وسيوفهم وارتموا كالإعصار فـي بـسالة مـستميتة كلفت الحياة لعدد من أعدائهم وأبطأت سير الملاحقـين بدرجـة كافيـة لتمكين "كومبا اندوفين من الوصول إلى جاخاو وإعلان النفير العام.

ولما وصل "لاتجور" ورجاله إلى مدخل المدينـة وجـدوا كافـة أهلها واقفين للدفاع عنها، وأوقعوا فيها معركة مـن أروع معـاركهم ، واحتلوا أحياء متعددة وأحرقوا منازل كثيرة وواصلوا حتى إلى الـدار الملكية واحتلوها ونهبوا ما فيها ثم انسحبوا قبل وصول الفيالق المشكلة من القرى المجاورة بتحريض من الأمير انجوت امبوج".

ولم يتعرض قط ملك " سين" لإهانة كهذه التي لا يمكـن غـسل أدرانها إلا بالدماء.

وجمع بورسين مجلس المملكـة بيمـا فـيهم جماعـة "فاربـا" و"ساخساخ" و"جاليكي" و"سالتكي".

ولما حضر الجميع قام كومبا اندوفين الأول بعرض الوضع بكـل إيجاز مقترحا أن يتهيئ جيش "سين" برمته للمشي إلى " سـالم " فـي نفس اليوم من أجل إعطاء المسلمين درسا قاسيا لا ينسى وانطلقت مـن الصدور صيحات متسخطة قائلة : الانتقام الانتقام الانتقام.

وطالب جماعة سالتكي استشارة الأوثان قبل القيام بأي عمل قبـل مجيء جواب الآلهة، واتفق الجميع على هذا.

ولم تكن تمشي على قدم وساق إلا الترتيبات وأعلن هـؤلاء فـي الغد بان الأرواح قد أصدرت حكما حاسما هـو أن أي جـيش يغـادر "سين" للذهاب إلى سالم" قصد محاربة مابا سيموتون عن بكـرة أبـيهم وإما إذا انتصر بورسين "مابا" حتى يأتي إلى مملكته سيكون النصر لـه بكل تأكيد.

وكاد الشعب يتميز من الغيظ بهذا الانتظار ولكن " كومبا اندوفين" لم يجد إلا الصبر مع الصياح بين الفينة والأخرى ، من شدة الغضب بهذه الكلمات: متى سيأتي مابا لمحاربتنا إذن؟

وفي غضون ذلك أوفد مبعوثين إلى "جوول" وإلى غوري لجمع الأسلحة والعتاد لمساندة حرب ستكون لا محالة طويلة ، وفي إحدى الليالي نبتت في رأسه هذه الفكرة.

كومبا اندوفين يوبخ مابا ويتحداه

وفي إحدى الليالي ، نبتت في رأس كومبا اندوفين " فكرة إرسال رسول لتحدي مابا تحديا يحمله على الإسراع بأخذ القرار لمحاربته.

ولكن من الرجل الذي يتجرأ على القيام بهذه المهمة وللعثور على هذا الرجل ، أمر بعقد مجلس العرش ليلقي على مسامعهم الكلمات التالية: منذ أن قام المسلمون بغزو ماخاو ونهبها ، لم اكتحل بغمض[1] نظرا لعزمي القوي على أن يكلفهم هذا العمل الشائن وهذه الجرأة الفظيعة أبهظ الأثمان ، ولكن الأوضاع كما تعرفونها تجبرني على انتظار يزيد من جزعي وحقدي على مر الأسابيع و الأيام بله الساعات والثواني ، وبما أني لا أجد "مابا" أمامي لأريه شدة بطشي وانتقامي ، رأيت أن أكلف واحدا منكم يذهب لإثارته ، ولكن هذه المهمة خطيرة خطورة لا يمكن أن يقوم بها إلا رجل متطوع لا يبالي بالموت في سبيل مجد الوطن ، لأجل هذا لا أستطيع أن أعين واحدا منكم.

وفور انتهائه من إلقاء هذه الكلمات قام رجل طويل القامة عريض البنية كالمصارع واتجه نحو"بور" قائلا" قتل المسلمون أبي بوكر وأحرقوا منزلي ونهبوا قوت عيالي لأجل هذا أقسمت في نفسي بأني لن أموت إلا بعد الانتقام منهم ، وإذا كنت واثقا بي فإني أقبل أن

[1]) أي لم أنم (المعرب)

أذهب إلى سالم علني أجد الفرصة سانحة لمعرفة الرجل الذي أبعث عنه منذ مدة طويلة.

ولما انتهى هذا الرجل من كلماته أخذ كومبا اندوفين بمنكبيه وضمه إلى صدره بكل حنان وفض الجلسة ثم دخل مع الرجل في الدار الملكية.

ولما وصلت الأعمال القتالية الباسلة التي قام بها "لاتجور" إلى نيورو"بدأت الأحاديث تدور حولها ولما سمع مابا تلك الأحاديث أبدى عدم موافقته عليها واستيائه منها ودعا أخاه " عبد الله با " ووبخه توبيخا شديدا ، كما دعا لاتجور وأبدى له عدم استحسانه لعمل كهذا مذكرا إياه بان عمله ليس حرب انتقام وبطش بالأعداء ، لكنه جهاد ديني يقوم على معايير لا يجوز الحيدة عنها ثم أضاف قائلا له :نحن لا نحارب قوما إلا إذا بدئونا بالعداوة ورفضوا الإيمان بالله ورسوله.

وطلب لاتجور العفو من الألمام معترفا بأنه تصرف تحت إملاء مشاعر انتقام كانت تتأجج نارها في قلبه منذ مدة طويلة ضد بورسين"

وبهذا الاعتذار عادت المياه إلى مجاريها الطبيعية.

وبينما كان مابا يعمل في حقله مع تلاميذه في أحد أيام الثلاثاء جاءه رسول يخبره بأن هنالك رجلا طويل القامة مضفور لشعر يعلق على أذنيه أقراطا وعلى رأسه خمارا وعلى ساعديه سلاسل من فضة وأنه يطلب أن يرى مابا بأمر من بور سين.

وقال الألمام : لا بد أن يكون رجلا بهذه المواصفات من جماعة تيدو أعدو له بيتا ملائما وأنزلوه فيه ، ريثما أجد وقتا لاستقباله، وفي صباح يوم الخميس خرج الألمام لإمامة الصلاة والوظيفة ثم انعزل في إحدى غرفه لأداء بعض النوافل ولم يخرج منها إلا في الساعة التاسعة لتناول الفطور ثم أمر بإدخال الضيف عليه.

ولما حضر سيموماك أمام الألمام قال له قد أخبرت بأنك رسول من عند بورس سين ، جئت تطلب مقابلتي والآن استمع إليك تكلم بكل طمأنينة.

وعند ذلك نهض الرجل السيريري رافعا رأسه جائلا ببصره على الحاضرين قبل أن يعلن قائلا: الرسالة التي أحملها خطيرة جدا إلى حد أن بور سين طلب مني أن لا أبوح بها إلا بحضور جميع رعاياك.

وقال له مابا لكي أقوم بجمع رعاياي ، لا بد لي أكثر من يوم كامل ، وهذا لا أفعله إلا في مناسبات نادرة ، ولم أقم بذلك قط من أجل رجل من طائفة تبدو مثلك ، لا يستحق حتى أن أصافحه بيدي.

وإذا كان هذا [illegible] ، لا [illegible] فما عليك إلا أن [illegible] صلاة الجمعة [illegible]

وستستطيع التحدث إليهم بكل حرية.

ثم قام سيموماك بانحناء توقيرا للحضور وانثنى راجعا، وهو يبدو راضيا بما سمع.

وبعد انتهاء صلاة الجمعة جمع مابا" المسلمين خارج المسجد ثم أمر بالذهاب للبحث عن رسول بورسين .

ولما جاء أعطاه الكلمة.

وأقبل هذا الأخير على الجمهور في جسد نصف عار ومشية فخور والصدع قائلا: اعلموا أيها الحضور بأنه إذا كان أرسلني بور سين من بعيد وطلب مني أن أبلغكم رسالته في جمهور ، فإنما يريد أن يقول لكم بأن "مابا" رجل جبان رعديد على خلاف ما كان يظن منه وبأنه أيضا سفاك وقاطع طريق خسيس.

وارتفعت الأيدي لمعاقبة هذا الخطيب بسبب وقاحته البالغة ، ولكن "مابا" نهض ليأمرهم بتركه لمواصلة كلمته وتنفس سيموماك بأنفاس ملؤها الافتخار والاعتزاز ونظر إلى الجمهور نظرة حمراء مليئة بالحقد ثم واصل كلمته قائلا فرسانك قد نهبوا قرية "كرانكور" بغتة " واستأصلوا الحرس الملكي وقتلوا "اندام " وبوكر انكوني " و"وولوسوني" وخربوا" جاخاو".

وأكرر بان هذا عمل شائن لا يليق بشخص يدعى أنه حفيد لكولي تينكلا لأجل هذا طلب مني بورسين " أن أقول لك بأن فرسانك

لم يكسبوا إلا انتصارا يلوث شرفك ويحط من قدر القضية التي تدعي أنك تدافع عليها، وبور سين يتحداك أمام الملإ ويدعوك أن تتي مرة أخرى إلى سين إن لم تكن خائفا منه، وكنت صادقا فيما تدعيه ، إن عاودت لكرة فلن تجد ولنا لمباغتنا لأن أبطال بلادي قد أقسموا بكل مقدساتهم أنهم لن يناموا على فرس أزواجهم ما لم يقسموا لهن استئصال جميع جيشك مادة للتغني.

وهبت مرة أخرى على الحضور رياح غضب مزمجرا ، وكل واحد يريد أن يذبح بيديه هذا المجنون المتهور إلى حد البكاء من الغيظ دون أن يعرفوا ما العمل . أما لاتجور فكان يهتز من الغضب وعيناه حمروان من شدة الحقد.

ولما كومباكي الذي لم يعد يسيطر على نفسه قام وصاح بكل حنق :قائلا" أيها الألمام " أعطني إذنا بإنفاذ سلاحي في قلب هذا الرجل اوقح أمام الملإ، وأطلب منك أن تفضل علي بكلمة واحدة لأذبحه رقال لهم مابا" الهدوء الهدوء يا خواني إذا كان بورسين يتحداني بهذه اللهجة فأنا الذي أقوم برفع لتحدي أما هذا الرجل فليس إلا رسولا يجب أن أضمن سلامته ثم التفت إلى "سيموماك" قائلا له قل لسيدك بان الذي دوخ وقتل "ماجاخير" جيريبا" وطرد "بور سالم" وغزا جولف رهزم الحاكم الفرنسي في ثمانية آلاف من جنوده بشاطئ باجان " إن رجلا حقق كل هذه الانتصارات لا ولن يجد ما يخافه من " بور سين" ولا من عاهل طرده عشر جيشي إلى أقصى حدوده.

ومع هذا ، فأعترف بأن رجالي قد ارتكبوا أخطاء في حق سين وأقدم اعتذاري باسمهم طالبا منك إبلاغ هذا الإعتذار إلى كومبا اندوفين ، ولكن قل له بأني لست في حاجة إلى من يوجه إلي دعوة لكي آتي إلى "سين" إذا بقي مصرا على عبادة الأوثان وإعلان العداوة على المسلمين ، فليكن أهلها على ثقة تامة بأن حوافر خيلي ستطأ في يوم من الأيام الأرض لقديمة ل" سين" من أجل نصب راية الإسلام فيها، كما فعلنا في سالم وجولف"

وعندما يحين هذا الوقت سأعمل حتى لا يباغتوا ،والتفت "سيموماك" مرة إلى "مابا" منحنيا انحناء توقير واحترام ثم تقدم حتى إلى كومبا كي وقال له: هل أستطيع أن أعرف أيها الفارس النبيل : من أين لك هذا السيف الرائع الذي يتدلى على خاصرتك؟

هذا السلاح قد انتزعته من أحد الوجهاء الثلاثة الذين كانوا مع" كومبا اندوفين " وقتلناهم بين " كرانكور" و"جاخاو" وقد قتلت أنا بنفسي الشخص الذي كان يتقلد بهذا السيف قبل أن يتمكن من استعماله.

صدقت إن هذا الرجل هو أبي " بوكر انكوني" وأنا سيموماك" وهل أستطيع أن أطلب منك أمرين جليلين؟

أقترح عليك أن أعطيك فرسي وأذهب إلى "سين" ماشيا" على قدمي وتعطيني هذا السيف بالمقابل لأذهب به إلى سين للدلالة على أني أديت مهمتي؟

وقال "مابا" لكومبا كي بالاستجابة لمطلبه دون أخذ فرسه.

ولما أخذ "سيموماك " السلاح بيديه ضمه إلى صدره وقال ومطلبي الثاني هو أن تتفضل علي بمبارزة بيني وبينك عندما يأتي "مابا" إلى سين" وسأحمل قميصا أبيض وأركب فرسا أبلق ، من أجل مساعدتك على الاعتداء إلى وسوف لن أهاجم عليك في ذلك اليوم إلا بعد أن تميزني.وقبل منه" كومباكي" هذا المطلب بتمامه وكماله ، وسأل الله أن يأتي هذا اليوم في أسرع وقت ممكن ، ثم قال له : وساركب أنا أيضا فرسا أبلق وسألبس قميصا أبيض وعمامة بيضاء، وأقسم لك بأني لن أهاجم عليك إلا بعد أن تميزني وأتأسف على أنك لم تقترح هذه المبارزة الآن ،ولا أكاد أستطيع أن أملك نفسي من تصور الفرح الذي يغمرني وأنا أقطع رأسك.

وابتسم "سيموماك" ضاحكا من هذا الكلام ثم خرج وأمر مابا الحضور بالانفضاض.

بور يعد عدته ومابا يسعى لمساعدة المستضعفين

وفي الأشهر التالية اتصل بور سين بالفرنسيين وحصل منهم كمية كبيرة من الأسلحة والعتاد ، وقام بتجنيد الجنود على امتداد

مملكته في أوسع نطاق وصودرت دوأب الناس من الخيـــون والحميـــر لاستعمالها كوسيلة نقل للجنود وبث العيون في جميـــع ولايـــات ســـالم لمراقبة تحركات "مابا".

وأخذت جميع الترتيبات لضرب العدو عندما تطأ قدمـــه الأولـــى أرض سين.

أما مابا فكانت عنده مشاريع أخرى في الوقت الحاضـــر وذلـــك لأن الحاكم الفرنسي لما فشل في حملته إلى " ريب" عزم على أن يقـــوم بأمور منها:

أولا: اتخاذ كولخ مركزا لرصد جميع تحركات فرق مابا.

ثانيا: إرسال إمدادات إلى جنوده وخاصة مع مجـــيء فيلريـــري وضباط صغار آخرين.

ثالثا : تسيير مراكب مائية تقوم بالاتصالات بين غوري وكـــولخ لتقديم المعلومات عن الرجال والعتاد.

وقام صيادو "نيومنكا" – الجواسيس الرئيسيون لمابا وللمتعـــاونين معه في مجال شراء الأسلحة – بلفت انتباهه أكثر من مرة على خطـــر عظيم يهدد أعماله الجهادية وهذا الخطر هو حضور قوات معادية لـــه في مركز كولخ مستعدة لمباغتته في أي وقـــت أو المـــشي عليـــه فـــي "ريب" كما حصل في الماضي – إذا ابتعد عن "ريب" في هـــذا الوقـــت الذي كانت العداوة سافرة بين مابا وسين" استنجد مسلمون فـــي بـــاول وكايور ليخلصهم من نير طائفة تيدو.

ورأى مابا بأنه لا يمكنه الهرع لنجدة هؤلاء إلا إذا بـــدأ بتـــدمير مركز كولخ " أو إضعافه على الأقل حتى لا يستطيع عرقلته في ســـبيل انجاز مشروعاته.

ولما وصلت أخبار تفيده بأن هنالك فيلقا مـــن الجـــيش الفرنـــسي تحت قيادة كابتين كوريتري يتحرك بالقرب من مدينـــة كـــولخ ، نقـــل جيشه بسرعة إلى تيوفاك حيث سيمر الفرنسيون ونصب لهم فيها كمينا قتل كثيرين منهم.

ولقد حدث هذا سنة 1867 م

وكان من بين المقتولين كابتين كروري رئيس السرية والرقيب ، وولس ديكورسيلا وطبيب جراح اسمه "امبيري " وعشرات آخرين من جنود الفيلق .

ولم تتمكن بقية الجيش من الهرب إلا بعد تصفيات وإصابات باهظة ولاحقهم المسلمون حتى إلى مدخل كولخ " حيث قامت بينهم وبين الهاربين معركة بالغة الضراوة استمرت إلى وقت اقتراب الغسق وتوقفت بسبب عدم وجود مقاتلين . وبهذا أصبح مابا قادرا على أن يبتعد عن سالم "دون خطر نظرا للإصابات البالغة التي نزلت على القوات الفرنسية في مركز كولخ.

وتحرك في بداية شهر يوليو نحو "باول" مجانبا سين ومحاذيا الحدود الشمالية.

ولما سمع جماعات تيدو بخبر مجيء "مابا" أوقفوا جميع المضايقات التي كان المسلمون يتعرضون لها من جهتهم وتخلوا حتى عن مجرد التفكير في مقاومته.

ولما وصل" مابا" ولم يجد دافعا للتدخل العسكري قرر الرجوع إلى "ريب" مع وعد أتباعه بالعودة بعد فصل نزول الأمطار ، ليرى هل بقي وضع المسلمين على هذا الحالة أو لا.

مابا يستشهد في طريق العودة من نصرة المستضعفين.

ولم يكن الألمام ينوي القيام بأي عمل حربي في هذا الوقت.

ويدل على هذا دليلان هما:

أولا: أنه لم يكتب إلى بور سين ليخبره بعزمه على شن حرب ضد مملكته، ولو كان عازما على الحرب لأخبرك كما وعده.

ثانيا: أنه لم يكن قد أخذ أي إجراء عملي للحرب بدليل أنه ترك باروده يتبلل مما يدل دلالة أكيدة على عدم تبييت نية الحرب لأن البارود كان من أعظم عناصر عتاده العسكري.

ولما وصل قرية " تيوكون" و" فاندانغ " الحاليتين ، وقف في محلة تحيط بها أشجار وأعشاب متوسطة الطول، بتاريخ 17 من

يوليو. هنالك رأى بورسين كوسبا انوفين استغلال هذه الفرصة التي كان ينتظرها منذ مدة طويلة، وقام بمحاصرة جيش "مابا" من جميع الجهات ثم أعطي الإذن بالهجوم وانطلقت صيحات مدوية وخشنة من صدور جنوده الذين هاجم فرسانهم على المسلمين ورشقتهم مشاتهم من وراء الأشجار والجنبات بنيران الأسلحة في ضراوة غير عادية.

وفقد المسلمون السيطرة على الوضع في الوهلة الأولى بسبب المباغتة وكثرة العدد ، ومات كثيرون منهم قبل أن يعرفوا ما الخبر، وانتظم آخرون بشكل عفوي مكونين جبهة أفشلت حملات متعددة للعدو ، وزلزلتهم بصفة مؤقتة.

واستغل "مابا" هذا الوضع ليتحرك نحو غابة قريبة وكثيفة الأشجار وهنالك أمر جنوده أن ينقسموا إلى وحدات تكتيكية مكنت المسلمين من تفريق قوات عدوهم وتجنب المواجهات في أعداد كبيرة ،وأمرهم قائدهم أيضا باعتماد أسلوب المبارزة الفردية لأن غالبية بنادقهم لم تعد عملية بسبب بلل البارود.

ونافس فرسان "كايور" تحت " قيادة " لاتجور" شرف الدفاع عن الألمام مع فرسان " ريب" تحت قيادة عبد الله با قائدا وذلك للتشرف بالموت قريبا منه إذا حان الحَيْنُ[1]، ووفق مابا بينهم بأن تولي بنفسه قيادة إحدى الوحدات القتالية ، واكتفى كل قائد بقيادة مجموعته، واشتدت هجمة السنين في هذا الوقت – بعد تضعضع – بسبب وصول فيلق جديد من باول تحت قيادة الأمير سالمون.

وفي هذا الوقت كان كومباكي ينتقل من فئة إلى أخرى وسط مقتلة عظيمة للبحث عن فارس ذي لباس أبيض وعلى فرس أبلق ، وهو يندفع في معمعة كزوبعة محنوقة مع الصياح في سعار وغيظ إلى أن تلمح له من بعيد هذا الجواد ملطخا بالوحل وعلى صهوته فارس ذو بنية رياضية متينة في لباس أبيض وهو ممسك بيده سيفا محمرا بالدماء ، ولما ميز الخطيب الوقح الذي كان يبحث عنه منذ ساعات كاد قلبه أن ينقلع من شدة دقات الفرح.

---

[1]) الموت (المعرب)

وطرح بندقيته وسل سيفه صائحا: هـاهو ذا " سـيماموك" يـا " سيموماك" إني أنا كومباكي .

ولما استعد لينقض نهالت عليه ضربات سيف متعددة من ورائـه فتركته طريحا على الأرض يتشحط بدمه ن ولم تقم المبارزة الموعودة بين البطلين على تأسف كبير من القصاصين والقوالين.

واستمر القتال طيلة اليوم دون هدنة ولا توقـف رغـم هجمـات العدو بصفة شبه خارقة وقاوموا بعزم غير مفلول وردوا علـى جميـع الضربات ، بل وكانوا يسيطرون على العمليات في بعض الأحيان.

وبعد ساعة من ميلان الشمس للغروب أصيب الألمـام المجاهـد بطلقة رصاص أسقطته من على متن جواده ممتدا على الأرض.

هنالك انقسمت وحدته إلى فريقين : فريق انقض على المهـاجمين بضراوة انتقامية لا مثيل لها، وفريق آخر هرع لنجدة الألمام والعنايـة به ونقلوه بلطف إلى ظل إحدى الأشجار وهم يشكلون سـياجا بـشريا حوله.

هنالك ممدوه على ظهره فوق الأرض ، ورأسـه تجـاه القبلـة ،وانحنى عليه عشرة رجل عيونهم مغرورقة من الدموع ؛ بينما كـان أحمد خبا يرطب الأجواء بقراءة سورة ياسين على المحتضر بـصوت يجعل حتى قلوب الملاحدة طافحة من الانفعال الإيماني.

وكان لاتجور وديمبا وار سال ينتحبان من شدة الحزن.

أما الألمام الذي يعرف بأنه يعيش آخر لحظاته في الحياة الـدنيا، فقد استجمع قواه ليلقي على أتباعـه – بـصوت متكـسر – الكلمـات التالية:

" أيها الأخوة في الدين: قد بث الله في روعي بأني علـى وشـك مغادرتكم قبل غروب الشمس، ولا غرو في ذلـك لأن الله يقـول فـي القرآن الكريم: " كل نفس ذائقة الموت " والأمر الذي يجـب الحـرص عليه هو أن يجدنا هذا الموت في سبيل الله وفيما يوجب مرضاته.

واصلوا هذا الجهاد العظيم في سبيل نشر الإسلام سواء كان مابا حيا أو ميتا ، واعلموا أن كومبا اندوفين أعجز وأحقر مـن أن يوقـف

إرادة الله سبحانه وتعالى، إن معركة " صومب" هـذه ستكون البـذرة التي تخصب أرض" سين" بالإسلام وتبشر بخلوده فيها إلى الأبد.

ثم التفت إلى لاتجور قائلا له: يا " لاتجور" طلبـت مـن الله أن يحلك من جديد على عرش كايور وقبل مني هذا الطلب ، لأجـل هـذا فإنك لن تموت في " صومب" وأمرك بالانسحاب من المعركة من الآن توجد هنالك.

ولما أراد لاتجور أن يعقب على هذا الكلام قاطعه مابـا قـائلا: مشيئة الله يجب أن تنفذ دون تعقيب ولا تردد.

ثم نطق بالشهادين قائلا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمـدا عبده ورسوله وأومن بالله وبكتبه وملائكته ورسله ولا أفرق بين أحـد منهم وأومن بان الجنة حق والنار حق والبعث حق والفصل بين العبـاد يوم القيامة حق.

ثم استراح قليلا قبل أن يرسل على أتباعه نظرته الأخيرة وهـو يقرأ قوله تعالى : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنـا لنكـونن من الخاسرين ، ولم يك يتلفظ بالكلمات الأخيرة من هذه الأيـة حتـى تغمضت عيناه وسكنت قسمات وجهه ومال رأسه إلى اليمين بلطف.

وبعد وفاة الألمام ، عض لاتجور على شفتيه من الحزن وطأطـأ برأسه وهو جالس تجاه القبلة بجسم مرتعد من نحيب مثير الشفقة.

وجهش جميع الذين حضروا هذه اللحظة الصعبة بالبكـاء وكـان مامر انداري هو أول من استعاد عقله ثم أمر بحفر قبـر أدخلـوا فيـه جثمان الألمام الشهيد وهو على ملابسه التي مات عليهـا، دون غـسل ولا صلاة وفـق السـنة الجاريـة فـي شـهداء معـارك الإسـلام.

ثم أهالوا عليه التراب شيئا فشيئا ، وبعد الدفن أخذ كـل واحـد مـنهم قبضة من التراب، وقرأ عليها دعاء الميت ثم طرحها على القبر.

وسووا مكان موارة الجثمان وغطوه بقـش وأوراق مـن أجـل إخفائه بعد أن وضع مامر أنداري على المكان المحاذي لرأس الميـت قطعة فخار للعلامة.

ولما أراد لاتجور وجماعته مواصلة المعركة بعد الدفن ، منعهم جميع أولئك الذين سمعوا الكلمات الأخيرة من الألمام ، ومن ثم أخذوا سبيلهم للرجوع إلى " كايور" بقلوب حزينة والمعركة مستمرة على أشدها ، واستعاد المسلمون المواقع التي كانوا قد فقدوها وصمموا على مواصلة القتال ما دام يوجد أمامهم عدو محارب ، وكان موت شيخهم قد قواهم وحمسهم بدلا من تحطيم معنوياتهم ،ومات غالبية وجهاء " سين" تحت ضرباتهم ، ولم تتوقف المعركة إلا بعد أن خارت قوات أمل "سين" وهربوا بسبب محاربة عدو لا يكاد يحس بالتعب أو الإعياء وخمدت فرقعات الأسلحة شيئا فشيئا مخلفة هدوء كانت تتخلله بين لحظة وأخرى حشرجات جريح يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ولما غادر المسلمون ساحة المعركة اجتمعوا في مكان قريب منها ووجدوا أنه سقط في ساحة الشرف - بالإضافة إلى شيخهم وأخيه عثمان با – جميع هؤلاء من أصحابهم : " دونكي كاس" و"كاتم تيارنو" و"ماكيت كي" و"منصور سغوتو فاما" ومختار انجاي " وأحمد خجا" وكومبا جانكي " و"كوكبا كي" ومئات من جنود مجهولين قدموا حياتهم لئلا يخبو مشعل الإسلام في هذه الأراضي إلى الأبد ، ولم تشاهد أرض سين العتيدة جريان دماء نبيلة كما شاهدت وعاشت في هذه المعركة .

وواصل المسلمون سيرهم إلى نيور حتى بدأت أصوات المؤذنين تدوي متساوقة مع حوافر خيلهم في سمفونية تبدو كأنها تحاكي لحركات الرائعة لبطولتهم البطولية.

ولما بدأت شمس يوم التاسع عشر من شهر يوليو تبزغ في الأفق للإعلان عن وفاة هذه الليلة ، كانت صفحة من أروع صفات الجهاد الإسلامي في السنغال ،كتبت عليها بأحرف من الدم:

يرقد "مابا جاخو با" ناشر الإسلام في" سالم" قرير العين هنيء النفس ، هنا في ساحة معركة صومب.